2022

نوهدرا

رواية

د. كريم محسن الخياط

دار كلمات الالكترونية
Sel_am_76@yahoo.com
Kalemat00000002

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المؤلف : د. كريم محسن الخيط

الكتاب: نوهدرا

التصنيف : رواية

الطبعة : ثالثة منقحة

عدد الصفحات : ١٣١

سنة الطباعة : ٢٠٢٢

Alemat
ELECTRONIC
دار كلمات الالكترونية
Sal_am_76@yahoo-com

نوهَدرا

رواية

د. كريم محسن الخياط

شكر

يسعدني أن أتقدم بفائق الشكر والتقدير إلى الشاعر والناقد الكبير الدكتور: عبد الكاظم جبر وصديقي الرائع الدكتور نبيل الهادي ناقي؛ إذ كان لملاحظاتهما القيّمة على الطبعة الثانية من هذه الرواية أثر كبير في أن تخرج الطبعة الثالثة على ما هي عليه.

{١}

مضى أكثر من نصف ساعة وأنا أنتظر موافقة الضابط ليسمح لشاب بعمر عشرين سنة تقريباً بالدخول، فعندما وصلت سيارتنا الصغيرة القادمة من أربيل إلى سيطرة مدخل محافظة دهوك من جهة الموصل أنزلونا جميعاً وفتشونا ونظروا في بطاقات الدخول التي حصلنا عليها من سيطرة أربيل، ثم طلبوا منا أن ننتظر شاباً كان يسافر معنا قد أطالوا التحقيق معه. كان الأمر غريباً بالنسبة لي، فمن الواضح أن الشاب من أصل كردي، إذ كان يتحدث اللغة الكردية مع السائق في طريق أربيل – دهوك الذي امتد لثلاث ساعات، فلماذا لم يسمحوا له بدخول دهوك؟!

عندما تأخر التحقيق وقاربت الساعة العاشرة ليلاً، تبرعت بأن أسأل أحد الضباط عن مصير الشاب، وحين سألت أحدهم، طلب منا الرحيل، إذ تبين أن الشاب ليس عراقياً إنما هو يحمل الجنسية التركية، وسبب احتجازهم له ليس لأنه تركي، إنما لأنه من البككة.

عدت إلى السيارة وأنا مستغرب من الأمر وأتساءل: (أليس أعضاء منظمة البككة كرداً؟ ألا ينبغي من الكرد الدفاع عن الكرد على وفق المشروع القومي الذي يتبناه كرد العراق؟). أخبرت المسافرين معي والسائق عما عرفته، فتحركت السيارة من دون تعليق من أحد، وكأن الأمر مألوف لديهم.

كان الجو بارداً في الخارج لكنه ممتع بالنسبة لي، على الرغم من معاناتي الطويلة في هذا اليوم، إذ بدأت رحلتي المليئة بالعوائق منذ فجر السبت الموافق ٢٩ تشرين الثاني ٢٠٠٨ من بابل إلى بغداد، ثم إلى أربيل، وها أنا على أبواب دهوك، مدينة الذكريات والأحلام ففي كراج النهضة في بغداد، كنت مضطراً لأن أسافر بسيارة كبيرة تسع لخمسين راكباً، لكن المسافرين اليوم أقل من الأيام الأخرى بحسب ما يقول أحدهم، فها نحن أقل من عشرين مسافراً وقد مضت علينا ساعة تقريباً ننتظر الآخرين، وحين شعرت بالجوع قررت أن أتناول الفطور الصباحي.

نزلت من الباص، وتركت حقيبتي على الكرسي الذي حجزته، ودخلت أحد مطاعم الكراج، طلبت صحن قيمر وقليلاً من المربى وشاياً بقدح كبير، كنت أتفنن وأنا أضع القيمر البارد في الصمونة الحارة وأمسحه بالمربى، فأقضم قطعة من الصمونة وأتبعها برشفة من الشاي، فأشعر بأني أولد من جديد، كنت أرى أن الولادة الجديدة تتحقق في أمرين، الأمر الأول: عند تناول القيمر والمربى في صمونة حارة بالإضافة إلى الشاي، والأمر الثاني: بعد الإغتسال في حمام حار جداً.

بعد أن أكملت فطوري عدت إلى الباص فوجدته خالياً من المسافرين وقد تجمع قربه أكثر من مئة شخص مشكلين حلقة حول حقيبة يشكّون أن فيها قنبلة، كان الشك بوجود قنبلة في أي مكان مألوفاً لدى البغداديين؛ بسبب الحرب الطائفية التي كان يعيشها العراق منذ عامين، فلم تدع حرب الطوائف أحداً يشعر بالأمان، لكني حدقت بحقيبتي وهي في وسطهم باستغراب؛ فإذا كانوا يشكون

بوجود قنبلة، لماذا يتحلقون حول الحقيبة؟! مشيت ببطؤ وفتحت سحاب حقيبتي وأخرجت منها كتب السادس الأدبي الثقيلة، وبدأت أشير للمتجمهرين بالكتب وهم يتضاحكون، وبين كل تلك الضجة أردفت الحقيبة على ظهري وصعدت الباص، وما هي إلا دقائق حتى صعد الجميع لنتحرك نحو أربيل في الثامنة صباحاً.

ما إن تحرك الباص حتى شعرت بألم في كعب قدمي اليمنى، فخلعت حذائي، ووضعت قدمي عليه وأنا أحرك أصابعي لأجففها، وكنت أنحني لأدلك كعب قدمي اليمنى وأشمها لئلا تكون هناك رائحة تزعج المسافرين. وحين شعرت بتورم خفيف في كعب قدمي، تذكرت صديقتي ليليان وهي تضع لاصقاً طبياً على كعبيها لئلا يؤذيها الحذاء الجديد.

استيقظت من النوم قبل أن نصل كركوك؛ بسبب حلم حلمته، فتلفت يميناً وشمالاً لأرى هل انتبه المسافرون لي أم لا، فلعلي تكلمت وأنا نائم:

كنت أسير مع صديقتي ليليان في منطقة لا نعرفها متجهين إلى مكان ما. كنا في غاية الهدوء، وكان حديثي معها يخفف عني تعب الحياة العسكرية من تدريب وواجبات ليلية، وواجبات حماية طريق (زاخو- كاني ماسي) المتعب، فكان حديثها الذي لا أتذكره بلسماً يشفيني من ذلك الشقاء المخيف. كنا نسير في شارع ترابي في وادٍ تحيط به جبال بعيدة، لكن فجأة بدأت المياه تجرف الشارع، وعلى الرغم من عدم وجود أمطار، إلا أن النهر قد فاض. كانت المياه في الشارع ترتفع وتنسحب وكأننا على ساحل بحر. قالت ليليان وهي تضع يدها على خصري: (لا

تخاف، هاي تجربة لمواجهة الفيضان)، فصدّقت قولها، لكني طلبت منها الهروب باتجاه الجنوب، فركضنا معاً عندما بدأ الماء يلامس ركبتينا، متجهين نحو جسر يشبه جسر الفلوجة القديم، لكنه آيل للسقوط. كنا على يقين بأننا سننجو إذا عبرنا ذلك الجسر، لكن عبوره بدا محالاً. أمسكتْ ليليان بي من ظهري وسارت خلفي، وبدأنا نتخطى العثرات التي خلفها دمارٌ ما على هذا الجسر. وصلنا إلى منتصف الجسر وتوقفنا حائرين بين مجازفة العبور والتسليم للفيضان أو العودة إلى الخلف.

في الساعة الرابعة عصراً، اقترب الباص من مدخل أربيل، وبدأ المسافرون يتصلون بأقاربهم لاستقبالهم إلا أنا، إذ لم أكن أعلم أن الدخول إلى أربيل يتطلب كفيلاً من داخل عاصمة كردستان العراق، وما إن وصل الباص السيطرة حتى بدأ الكفلاء يأخذون مكفوليهم إلى أربيل وبقيت واقفاً وحدي لا أعرف ماذا أفعل، فلم أحاول طلب مساعدة من الجنود؛ لأني أعرف أنهم بلا حيلة في أمور كهذه.

مضت ساعة وأنا أتنقل في السيطرة أحاول اقتناص فرصة كي أتحدث مع أحد ما، وحين أوشكت الشمس على الغروب، رأيت ضابطاً برتبة ملازم أول يتجه نحوي، سألني عن سبب وجودي هنا بلا كفيل، فأخبرته بأني لم أكن أعلم بهذا الأمر، وأني جئت لكي أقدم على الإمتحان الخارجي للصف السادس الأدبي، ثم أخرجت له وثيقة الثالث المتوسط الصادرة من ثانوية بدر خان في زاخو، وهي مصدقة من تربية دهوك، عند ذلك قال:

ـ يعني أنت تريد تروح لدهوك؟

= إي.

ـ توعدني ما تبات بأربيل .

شعرت بأن المشكلة قد حلت، وحين وعدته بأني سأذهب مباشرة إلى كراج دهوك، صمت الضابط قليلاً، ثم نادى أحد الجنود وأعطاه خمسة آلاف دينار، وطلب منه أن يأتي بسيارة تاكسي، وأن يذهب الجندي معي، ويحرص أن يرى سيارة دهوك تتحرك بي. عند ذلك طلبتُ من الضابط أن أدفع أجرة التاكسي ذهاباً وإياباً، لكنه قاطعني ووضع يده على كتفي قائلاً: (أنت ضيفي أنا)، فشكرته وذهبت مع الجندي إلى السيارة وأنا أرفع يدي لتحية الضابط طول الأمتار العشرة التي تفصل بينه وبين التاكسي.

سأل الجندي أحد سائقي السيارات التي ستقلني إلى دهوك عن أجرة السيارة، فأجابه أحد السائقين بأن الأجرة عشرون ألف دينار، لكن الجندي أصرّ على أن تكون خمسة عشر ألفاً، فوافق السائق، فصعدت التاكسي والجندي يبتسم ويردد: (خوا حافيز، خوات له گه ل) فكررت العبارتين وأنا في غاية السعادة.

بعد أن تحركت السيارة، أخبرنا السائقُ أنه سيسلك طريق الموصل؛ لأنه أفضل ليلاً، وعلى الرغم من أني لا أعرف كيف يكون أفضل، لكني وافقت مباشرة؛ إذ كنت على استعداد للموافقة حتى لو سلك طريقاً عبر جهنم.

كان يجلس بقربي في المقعد الخلفي شاب بعمر عشرين سنة تقريباً رفض أن نمر بضواحي الموصل وفضل طريقاً آخر لا أعرفه. فكل ما أعرفه أن طريق

موصل – دهوك طريق قديم؛ لأن هذه المدينة كانت أحد أقضية الموصل، لكن الرئيس البكر جعلها محافظة عام ١٩٦٩ تضم النواحي والقرى الكردية لتكون إحدى المحافظات الثلاث التي سيشملها الحكم الذاتي الذي سيقرّ في ١١ آذار ١٩٧٤، وفي الوقت نفسه، جعل تكريت محافظة أيضاً لتضم الأقضية والنواحي والقرى العربية، لكن هذه الاتفاقية فشلت بعد قيام الحرب الأهلية في العراق في ١٢ آذار، أي بعد يوم واحد من إعلانها بسبب رفض الملا مصطفى البرزاني ما تضمنه هذا الإتفاق، وقد استمرت هذه الحرب لسنة كاملة، فلم تنته إلا بعد اتفاقية ٦ آذار ١٩٧٥ التي جعلت إيران والعراق يتحالفان ضد الكرد.

على الرغم من إصرار الشاب، إلا أن السائق أصر أيضاً على أن يسلك الطريق الآمن بالنسبة له، فوافق الشاب على الرغم من الحزن المشوب بالغضب الذي ظهر على محياه.

عرفت ونحن في الطريق، أن الشاب أراد أن نصل إلى دهوك عن طريق العمادية الذي يربط أربيل بدهوك مباشرة، فندمت لأني لم أؤيد هذا الشاب، فأنا أحب هذا الطريق، ولي فيه ذكريات كثيرة، لكني لم أعرف سبب إصرار الشاب على سلوك هذا الطريق إلا بعدما أنزلوه في سيطرة دهوك لأنه من البككة.

بعد دقيقتين من اجتياز التاكسي لمدخل دهوك، طلبتُ من السائق أن ينزلني عند اقرب فندق، فنزلت من التاكسي وعلقت حقيبتي الجلدية على كتفي اليسرى وسرت باتجاه بوابة فندق فخم وانا أشعر بالحرج، فلم أكن أنوي أن أبيت في فندق من هذا النوع.

(به خێر بێیت به فه رمه)، قال موظف الاستعلامات عبارة الترحيب هذه وهو يرسم على وجهه ابتسامة عريضة لم تتمكن من جعلي أشعر بالراحة، فسألته عن سعر الغرفة المفردة وأنا أشعر بالحرج الشديد: (٨٠ دولار لليلة)، قال الموظف وهو يسحب قائمة تسجيل الزبائن ويضعها أمامي، وهو الأمر الذي جعلني أتعرق بصمت وأفتش عن إجابة مقنعة، فأخبرته بأني سأبحث عن فندق آخر لأن أسعارهم لا تلائمني، فأخبرني قبل أن أخرج أن أسعارهم هذه مخفضة لأنهم في الشتاء، وأن الأسعار متقاربة في فنادق هذه المنطقة، وعلى الرغم من أني لم أفهم ماذا قصد بقوله (هذه المنطقة)، إلا أني خرجت إلى الشارع من دون أن أسأله هل يقصد محافظة دهوك أم منطقة مجموعة الفنادق الفخمة التي تمتد على يمين الشارع بالنسبة لمن يدخل دهوك من جهة الموصل؟

سرت على غير هدى وأنا أشعر بقلق شديد، إذ كان الوقت متأخراً، فبعد قليل سيتصف الليل وأنا أسير وحدي في هذا الشارع العريض الخالي من المارة في مدينة لم أرها منذ عقدين، وكان كل ما لدي من مال لايكفي لأن أبيت ثلاث ليالٍ فقط، فكيف يمكن لي أن أبقى خمسة أيام تقريباً وماذا آكل؟

بينما أنا اسير على غير هدى، رأيت على مبعدة مني رجلاً مسناً يبدو عليه الوقار يسير باتجاهي، فشعرت بنوع من الإنقاذ، ولا أعرف لماذا شعرت بنشاط جعل قدميّ تسرعان نحوه، (ئێوه ره پـلش، أكو فندق هنا سعره مناسب)؟ قلت للرجل وأنا أحدق في وجهه المحمر المجعد، فنظر إلي باستغراب، (شجابك لهاي المنطقة)؟! قال وهو يتسم بود. كنت أظن أنه يسألني عن سبب زيارتي

لمحافظة دهوك؛ فأخبرته بأني أريد أن أؤدي الامتحان الخارجي للصف السادس الأدبي، (أهلاً وسهلاً بيك)، قال وهو يكاد يضحك. (أقصد شجابك لهاي المنطقة)؟ قال ذلك وهو يشير الى صف الفنادق الفارهة الذي يستغرق كل يمين الشارع تقريباً، ثم أخبرني بأن هذه الفنادق غالية وأنهم يسمونها فنادق الحرامية الكبار جماعة صاحبنا وصاحبكم، وأشار إلى تاكسي، وتحدث مع السائق باللغة الكردية، وأخبرني بأن السائق سيوصلني لسوق (جگاير)، وهناك أجد فنادق المسروقين أمثالنا.

في الطريق إلى السوق سألت السائق عن الأجرة، فأشار إليّ بثلاثة أصابع، فأعطيته ثلاثة آلاف دينار عراقي، ثم سألته عن أسعار الفنادق في سوق (جگاير): (نازانيم عربي)، قال وهو يوشك أن يركن سيارته.

نزلت من السيارة وصعدت رصيفاً مسوراً بسور حديدي باستثناء بعض الفتحات التي تستعمل لعبور المارة، وعلى الرغم من أن الليل قد انتصف في قلب دهوك، إلا أن الرصيف كان مزدحماً بالمارة، وكنت أسمع لغات عديدة منها الكردية والسريانية والتركمانية وبعض الكلمات العربية التي تتقافز هنا و هناك.

أعجبني اسم الفندق الذي أنزلني السائق عند بابه (شيرين)، وانتابني شعور بأن الرجل الوقور أوصى السائق أن ينزلني هنا، فاستجبت لذلك الشعور الذي فتح لي باباً لتذكر قصة (شيرين وفرهاد) التي رواها لي ذات مرة صديقي (آزاد) قبل ثلاثين عاماً، فدخلت الفندق وأنا أتوقع أن أجد الممثلة المصرية الجريئة شيرين رضا تجلس على إحدى قنفات صالة الاستقبال:

ـ ثيواره پـاش، أريد غرفة مفردة لمدة أسبوع تقريباً.

= ٢٥ ألف دينار لليلة.

على الرغم من أني شعرت بسعادة عندما سمعت سعر الغرفة، إلا أني طلبت من موظف الاستعلامات أن يخفض لي السعر قليلاً، حقيقة كنت أنوي المبيت في هذا الفندق حتى لو كان السعر أغلى مما طُلب مني، لكني أعرف أن هناك كساداً يصيب الفنادق في فصل الشتاء لقلة السائحين هنا.

تشاور موظف الإستعلامات مع رجل يجلس على مبعدة مني، ووافق على أن يكون عشرين الفاً فوافقت وأعطيته مئة ألف على الحساب، وأخبرته أني ربما أبقى خمسة أيام فقط. ابتسم الموظف وحمل حقيبتي إلى غرفة في الطابق الأول، طلبت منه شاياً وقطعتين من الكعك؛ لأني لا أقوى على النزول إلى الشارع بعد هذه الرحلة الشاقة.

استيقظت في صباح الأحد ٣٠ تشرين الثاني مبكراً بسبب حلم رأيته، فأسرعت بتدوينه لئلا أنساه: رأيت صديقتي ليليان مضطجعة أمامي ملتحفة بغطاء وردي خفيف، وما إن رأتني أنظر إليها حتى نهضت مستعينة بالجدار الذي جعلته متكأ لظهرها وهي مشغولة بفتح زر في كنزتها السمائية. التفتت إليّ وكأنها تخبرني بأن الزر عصي على الفتح، ثم خفضت رأسها لتحاول إيجاد سر انغلاقه بشدة، وبعد محاولات شتى أدارت رأسها إليّ فنهضتُ من فوري، وعلى الرغم من الشعور المجهول الذي دعاني إلى الجلوس، وجدتني أتحرك نحوها وأجلس بقربها

وأفتح الزر بكل أصابعي؛ فتبسمت لي وقبلتني من رقبتي. تفاجأت بأننا لسنا في بيت كبير مثلما كنت أتخيل، إنما نحن في مدرعة عسكرية متوجهين إلى العمادية.

كان الطريق إلى العمادية صعب جداً وأنا أحاول النزول من المدينة، لكني كنت أصعد إليها، لا أعرف كيف حدث هذا الأمر وهو أني أنزل وأنا أصعد، وعلى الرغم من أني اكتشفت أن صديقي دانيال هو الذي يقود المدرعة بدلاً عني، لكني مازلت أتحكم بسرعة المدرعة. شعرت بخيانة ما من أحد ما سوف توقع بنا نحن الثلاثة؛ لذلك قررنا الصعود إلى عاصمة للديدين مشياً.

دخلنا من باب العنقاء الزرادشتية إلى بيت كنت قد رأيته كثيراً في أحلامي، رأيت تلك الشوارع العريضة جدا جداً التي لا تضم سوى دوائر حكومية متباعدة محروسة بشدة، يقع بينهما هذا البيت المنفرد المطوق بحراسات الدوائر عن بعد.

كان دانيال مشغولاً في إعداد وجبة طعام لنا، وأنا أحاول أن أفكر بشيء ما لا أعرفه، والمكان هادئ جداً والشبابيك مقفلة، وفجأة بدأ صوت الرصاص الذي أدى إلى انهيار زجاج البيت، وفي أوج تلك الضجة تمكنت بصعوبة من أن أضع الشيلمانة تحت الكرويتة المثبتة بمسامير كبيرة جداً على سياج متوسطة الفلوجة من جهة السينما القديمة من الخارج.

شعرت بجوع شديد؛ إذ لم أتعش جيداً يوم أمس، وأول ما خطر ببالي أن أجد مطعماً يقدم قيمراً ومربى وشاياً.

كان الصباح جميلاً في سوق جكاير، وهو الأمر الذي دفعني إلى أن أمشي باتجاه المجسر لأستطلع السوق، ثم عدت وأنا اتسحّب ببطؤ، أتفحص المطاعم المنتشرة على جانب الشارع من جهة فندق شيرين.

سألت أحد المارة من كبار السن عن مطعم يقدم القيمر، فتساءل مبتسماً:

ـ گيمر عرب؟

= موشرط گيمر عرب، أحب أي گيمر ريفي.

ـ تقصد صناعة محلية؟

= بالضبط صناعة محلية.

فقال وهو يكاد يضحك:

ـ احنا هم نسميه گيمر عرب، ونسمي الريف الكردي عرب.

أرشدني الرجل إلى مطعم يقع في الشارع الموازي خلف فندق شيرين.

تناولت فطوري وأنا أشعر بولادة جديدة تبدأ من فمي وأنا أتذوق القيمر الممزوج بالعسل الدهوكي والخبز والشاي، (يااااااه ماهذه المتعة التي أشعر بها).

خرجت من المطعم لأمشي باتجاه مديرية تربية دهوك أسأل من أجده في طريقي من كبار السن مجتازاً الأزقة التي تختصر الطريق، إلى أن وصلت إلى زقاق معبد بالإسمنت، وتتوسطة ساقية لتصريف المياه، شعرت فيه كأني أتسلق جبلاً،

فسألت رجلاً يسير بالاتجاه نفسه، فطلب مني أن أمشي معه فهو يقصد مكاناً يقع في منتصف الطريق إلى بناية التربية.

على الرغم من أنه كبير في السن، إلا أنه كان يتسلق الزقاق مسرعاً وكأنه في سباق جري، في حين كنت ألهث وأنا أحاول اللحاق به، كان يتحدث كثيراً عن المكان وكأنه لا يشعر بأي تعب، وأنا أجيبه بعبارات مقتضبة لأني لا أقوى على الكلام إلى أن وصلنا إلى قمة الشارع، وهنا أشار إلى بناية زرقاء قائلاً: (هاي التربية)، فشكرته وبدأت مرحلة النزول إلى البناية ببطء شديد، فسلكت طريقاً مختصراً موازياً لشارع (رضا) لأصل إلى البناية التي لا تبتعد عن شارع دهوك الرئيس كثيراً.

كان منظر البنايات ملفتاً للنظر وهي مغلفة بالألمنيوم الملون في جو دهوك الصافي، وكانت نظافة الشوارع والأزقة تضفي طابعاً حضارياً على المدينة، وحقيقة لم أكن أتوقع أن تكون دهوك التي أعرفها منذ ثلاثين عاماً على هذه الصورة الجاذبة، فحين تمشيت في دهوك شعرت أني كنت ميتاً معتقداً أنه على قيد الحياة؛ فالحياة الحقيقية نسبة لي هنا في جمجمة العراق، في دهوك.

ذكر لي أحد المراجعين من المدرّسين أن نظام الإقليم يختلف عن نظام المركز، وصدمني بأولى المفاجآت الناتجة عن اختلاف النظامين، وهي أن التقديم على الامتحان الخارجي سينتهي في ١ ـ ١٢، في حين ينتهي التقديم بحسب نظام المركز في ١٥ ـ ١٢. هذا يعني أني يجب أن أسرع، فلم يبق لي غير يومين: اليوم وغد.

أخذت كتاباً إلى (ثانوية بدر خان المسائية)، لأستصدر وثيقة الثالث المتوسط، وتوجهت مباشرة إلى گراج زاخو وأنا أشعر بأن الوقت يداهمني، كانت المسافة بين مركز محافظة دهوك وقضاء زاخو لا تتجاوز ٦٠ كيلومتراً، لكن أغلب الطريق جبلي ومتعرج ويستغرق وقتاً أكثر من المعتاد في الطرق المألوفة.

أذكر أني سلكت هذا الطريق عشرات المرات لكني لم أكن متعجلاً مثلما أنا اليوم، حاولت أن أقنع نفسي بأني أمتلك وقتاً كافياً، فأنا سآخذ الوثيقة من الثانوية، وأعود إلى التربية، وأنهي التقديم، وليس هناك ما يؤخرني؛ لذلك تأملت جبال زاخو وكأنها تواجهني لأول مرة، فبعد قليل سنخترق الجبال لنصل إلى گلي زاخو الخطير؛ فقد كان هذا الگلي مكاناً كثيراً ما تنقلب فيه السيارات، ولاسيما الشاحنات الكبيرة؛ فهو مكون من أربع استدارات حادة يصعب على السائق الماهر تجاوزها من دون أن يشعر بالرهبة.

تذكرت عندما صدر لنا أمر من الرائد آمر كتيبة استطلاع حطين أن نذهب إلى الگلي لحماية شاحنة كبيرة مقلوبة فيه.

كانت الشاحنة قادمة من تركيا محمّلة بعلب صغيرة من الحليب السائل، وعندما وصلنا إلى الشاحنة وجدنا جوانب الشارع مليئة بآلاف من علب الحليب البيضاء الصغيرة، وكان كثير من الجنود يجمعون العلب وكأنها غنيمة.

بدا لي گلي زاخو مختلفاً اليوم؛ فقد تم تعديل بعض الاستدرات الحادة وجعلها أقل خطورة؛ إذ تجاوزناها بسهولة.

كنت أنتظر أن أرى اللوحة التي كتب عليها: (لا تيأسوا فلم يبق سوى خمسة كيلومترات للوصول إلى زاخو)، لكني لم أجدها.

لم أجد أحد من سواق التاكسيات يعرف مكان (ثانوية بدر خان المسائية) ولم أجد سائقاً يعرف العربية، فمشيت في الشارع لعلي أجد رجلاً كردياً مسناً.

توقفت قليلاً عند تمثال الشاعر البادیناني الشهير (أحمدي خاني) الذي ينتصب في أهم شارع في زاخو. حاولت أن أتذكر شيئاً مرّ بي هنا قبل ٣٠ عاماً، لكن ذاكرتي خانتني، تساءلت في نفسي: (كيف أذكر ولا أذكر)، فاغرورقت عياني بعبرة على شيء لا أتذكره.

بينما أنا أتفحص الوجوه، رأيت أربعة أو خمسة من الشباب ذوي السحنة السمراء الداكنة يجلسون على الرصيف، فظننتهم من البصرة، فتوجهت إليهم فحييتهم وسألتهم:

ـ ممكن أعرف وين ثانوية بدرخان؟

= نا زانيم كردي.

استغربت إجابتهم، فهم لايعرفون الكردية ولا العربية، فتوجهت إلى محل صغير رأيت فيه رجلاً أربعينياً كأنه قادم من (ملحمة مه م وزين) التي أبدعها (أحمدي خاني)، فسألته عن مكان الثانوية، فعاتبني لأني سألت بنغلادشيين في حين كان هناك كثير من العراقيين الذين يمكن أن يجيبوا سؤالي، قال لي بعتب مشوب بالحزن:

ـ ليش تسأل البنغلادشيين والعراقين تارسين الشارع؟

= ثق ما أدري بنغلادشيين عبالي من البصرة.

فضحك، وأرشدني إلى الطريق الذي يؤدي إلى الثانوية، وأخبرني أن اسمها قد تغير إلى (فوتابخانه زاخو يانيڤاران).

استقبلني الموظف المسؤول عن الوثائق بابتسامة وكأنه صديق لكل التلاميذ، ثم سألني عن تاريخ تأديتي لامتحان الثالث المتوسط، فأجبته أنه عام ١٩٧٩، فهز رأسه بالإيجاب وطلب مني أن أجلس على كرسي بقربه، ثم ذهب إلى المخزن ليأتي بالسجل.

بينما أنا أنتظر موظف الوثائق، عادت بي الذاكرة إلى سنوات دوامي في هذه المدرسة في نهاية السبعينيات أنا ومجموعة من أصدقائي (آزاد) و(مغديد ترزي) و(ليليان نيسان) و(عباس شبكي). كنا جميعاً متأخرين في الدراسة لسنين عدة، وكان لكل منا أسبابه التي تمحورت حول الإهمال والفقر والمشاكسات.

كان (آزاد) شاباً أربيلياً معتدل القامة، سميناً قليلاً، ذا سحنة تميل إلى السمرة، قوي البنية، وقد ترك دراسته ليعمل حداداً تشبّها (بكاوة الحداد) الذي انتفض في نوروز على الملك ضحاك.

شاء من شاء أن نكون طاقماً لمدرعة بيردم٢ تحمل الرقم ١٨٣ في عام ١٩٧٩، فأنا أقود المدرعة وهو الرامي على الرشاشة عيار ١٤.٥ ملم. كنا نتبادل المعلومات اللغوية، فهو يعلمني بعض مفردات اللغة الكردية، وأنا أعلمه بعض

مفردات العربية. وأنا من شجعه على إكمال دراسته في ثانوية بدر خان المسائية لتجاوز الثالث المتوسط.

كان آزاد يحب قوميته ويشعر بالغبن لعدم كونهم دولة مستقلة، وكنت أمزح معه كثيراً في هذا الموضوع، فمرة، قلت له: بعد عشرين عاماً سنمنحكم استقلالكم، لكننا قبل أن نفعل ذلك سنحفر أنفاقاً تحت كركوك ونحول نفطها إلى محافظة صلاح الدين، فشعرت بأنه صدّق ما قلت؛ إذ بدت على وجهه علامات الحزن المشوب بالغضب وهو يردد: (تسووها، تسووها)، وبالكاد تمكنت من اقناعه أنني أمزح.

كنّا كثيراً ما نتعرض لمواقف محرجة، أذكر منها أننا التقطنا صوراً فوتوغرافية ونحن نجلس على بدن المدرعة، وعند نزولنا إلى زاخو، تركنا الفيلم في أحد محلات التصوير؛ ليطبع لنا الصور، فأعطانا صاحب الاستوديو موعداً لاستلام الصور وهو ثلاثة أيام، وحينما كنا في وحدتنا العسكرية نديم المدرعة، أخبرنا رئيس عرفاء الوحدة أن النقيب مساعد آمر الكتيبة يريدنا فوراً.

ما هي إلا دقيقة، حتى وقفتُ أمام النقيب وهو يصرخ: (تريدون تگولون للأتراك عدنا سلاح ثقيل على حدودكم)؟ كان النقيب يصرخ وهو يقلّب الصور التي التقطناها.

شعرت أنني في مأزق؛ فلم أكن أعلم أن التقاط صور على المدرعة يعني ما يقوله النقيب، فأخبرته أنني لم أكن أعلم أن التصوير على المدرعة ممنوع، أما آزاد

فقد جلس على الأرض من الخوف، وفجأة تحدث صديقي دانيال الذي كان قد تصور معنا، فأخبر النقيب بأن الصور ليست ممنوعة، والدليل أنّ معنا ضابط وهو آمر سريتنا، فلو كانت الصور ممنوعة لامتنع الضابط عن التصوير، وهنا شعر النقيب أنه في حرج، إذ لا يمكنه أن يسير على المنوال الذي سار عليه ويضع صديقه في ورطة؛ لذلك اكتفى بتوبيخنا وتحذيرنا مدعياً أنه سيتكلم مع آمر سريتنا ويحذره.

كانت المسافة بين مقر وحدتنا والحدود التركية تصل إلى ١٢ كيلو متراً، وكانت هناك اتفاقات بين العراق وتركيا حول المساعدة في مطاردة مهربي المواشي والبككة، وكنا نعرف أن محافظ ديار بكر التركية يأتي إلى دهوك ليلتقي بأوميد مدحت مبارك محافظ دهوك في ذلك الزمن، وكنا ندخل تركيا بمدرعاتنا عبر النهر الفاصل بين البلدين بين حين وآخر من دون علمهم إذا استدعى الأمر ذلك، وهم يعرفون سلاحنا ونعرف سلاحهم، ونلتقي بهم كثيراً، لكن النقيب أراد أن يضخم الموضوع لأمر لا أعرفه.

في شتاء عام ١٩٨٠، نزلنا أنا وآزاد إلى زاخو من دون ورقة نزول، كنا نريد أن نستحم في حمام زاخو العام لنعيد تجددنا، وبينما نحن في الحمام، رأيت رئيس عرفاء الوحدة يلقي القبض على الجنود ويجرهم إلى خارج الحمام، كان الحمام مليئاً بالعسكريين والمدنيين، وما إن رأيته، حتى وضعت الصابون على رأسي ووجهي، فلم يعرفني، لكنه ألقى القبض على آزاد.

بعد أن أخرج الجنود وخرج، قطعت اغتسالي، وارتديت ملابسي ثم وصلت الكتيبة قبلهم.

بعد قليل جاء رئيس العرفاء ومعه ستة من الجنود بينهم آزاد، فوضعهم في حوض ماء كبير تسبح فيه قطع خفيفة من الجليد. كان آزاد يجلس في منتصف الحوض مبتسماً وهو يخبرني بقبضة يده اليمنى أن الأمر على ما يرام لكني شعرت بالخجل فتحركت نحو الحوض، وغمرتُ جسدي فيه ورئيس العرفاء ينظر إلي باستغراب، فأخبرته بهدوء أني كنت في الحمام.

بعد أن شاهد رئيس العرفاء ما فعلته، أخبرنا أنه سيخفف عنا العقوبة من ساعة إلى ربع ساعة على أن نقول (التوبة)، فكان يصرخ: (تنزلون بعد)؟ وكنا نرد عليه بصوت أعلى من صوته: (ننزل).

كان يطالبنا بالاعتذار عن النزول، لكننا في كل مرة يطلب منا الاعتذار نصرخ كلنا بصوت واحد: (ننزل)، فشعر بيأس محاولاته، فروى قصتنا إلى الملازم الأول آمر سريتنا، فحضر آمر السرية مسرعاً وأخرجنا من الحوض وقال لرئيس العرفاء: هؤلاء أبطال، لا ينبغي التعامل معهم هكذا.

وعندما كنا في سرسنگ، كدنا أنا وآزاد أن نَقتل أكثر من مئة من الجنود المغاوير بسبب غبائهم، ففي ذلك اليوم، كنا أنا وآزاد نلعب الكرة الطائرة أمام قاعتنا في سرسنك، وفجأة انتبهنا إلى مجموعة من الأكراد يبلغ عددهم أكثر من مئة، قادمين في سيارتين من نوع إيفا وهم يدخلون المعسكر بزيّهم الكردي الكاكي

وهم في هرج ومرج، فدخلنا مباشرة إلى قاعتنا، وأخذنا رشاشاتنا الكلاشنكوف وخرجنا ونحن نسدد عليهم، لكننا لاحظنا أنهم بلا سلاح، وأنهم لا يفعلون شيئاً سوى الهرج والمرج، وحين صرخنا بهم :(ارفعوا ايدكم)، ورمينا رصاصات في الهواء، بهتوا جميعهم وصاح أحدهم بصوت عال (آني راضي أبو الحانوت، آني راضي أبو الحانوت)، فاكتشفنا مؤخراً أنهم جنود من سرية المغاوير، استعان بهم منتج فيلم (طائر الشمس) بوصفهم كمبارساً لهذا الفيلم الذي يحكي قصة الطيار العراقي قاسم حسن، ذلك الطيار الذي سقطت طائرته في الأراضي الإيرانية ثم تمكن من وصول الأراضي العراقية بعد رحلة شاقة.

لقد كان آخر لقاء لي بآزاد هو بداية عام ١٩٨٢ عندما نُقلتْ وحدتنا من زاخو إلى البصرة، وهناك أخبرني بأنه سوف يهرب من الجيش ولا يعود ففعل.

كان آزاد ملتزماً غاية الإلتزام بالدوام عندما كنا في شمال العراق، لكن دوامه بدأ يتذبذب في البصرة بعد أن وجد أننا لسنا في العراق، فقد نقلت وحدتنا إلى عمق ٥٠ كيلومتراً في الأراضي الإيرانية.

كان آزاد يخشى من شيء ما، فعندما كنا ندخل الى عمق ١٠ كيلو مترات في الأراضي التركية، نجده يتحجج لكي لا يشترك بهذا الواجب.

عاد موظف الوثائق مبتسماً وهو يحمل سجلاً كبيراً، وبدأ يقلّبه بهدوء وأنا أنظر معه في الصفحات، ثم ضرب بسبابته على صورتي وقال: (هذا أنت).

فرحت كثيراً عندما رأيت صفحة بياناتي، إذ كنت أظن أنها أحرقت مثلما أحرق كثير من البيانات والوثائق في حروب الخليج التي دارت في العراق منذ عام ١٩٨٠ إلى ٢٠٠٣. بدأ الرجل المحترم بإنزال بياناتي في ورقة الوثيقة في حين كنت أتحين الفرصة لأطلب منه معلومات عن زملائي الآخرين، فسألته عن (ليليان) التي تركت الدوام في بداية الحرب العراقية الإيرانية، فبدأ الموظف يردد (ليليان، ليليان، ليليان) ثم سألني والإبتسامة ترتسم على شفتيه الدقيقتين: (ليليان نيسان)؟

أجبت بلهفة فاضحة:

= إي إي هاي صورتها.

ـ أها، حظك حلو، ليليان أخذت وثيقة قبل تلث أسابيع، هم تريد تمتحن خارجي.

عندما سمعت بهذا الخبر شعرت بأني محظوظ هذه المرة، فطمعت بأخلاق الرجل وسألته عن صديقي (مغديد):

ـ ولو ازعجتك بس أريد أسأل عن طالب آخر.

= لا أبداً ماكو ازعاج، إسأل براحتك منو؟

ـ مغديد ترزي، شاب تركماني كان طالباً معي.

= شنو انتو متفطنين؟ هذا أول البارحة أخذ وثيقة راح يمتحن السنة الجاية.

شكرته بطريقة طفولية ونهضت من الكرسي وعانقته وأنا أشكره وأخبرته أنه أحسن موظف في العراق، فضحك ونبهني بأني سأذهب من دون أن أستلم وثيقتي، فاعتذرت منه وجلست إلى أن أكمل الوثيقة، فخرجت وأنا أكرر شكري له وأنا في غاية السعادة.

كان مغديد ترزي شاباً تركمانياً من محافظة كركوك يصغرني بسنتين ذا شعر كثيف ووجه مربع، تأخر في دراسته لثلاث أو أربع سنوات بسبب إهمال والده وعدم اهتمامه به، وعلى الرغم من أنه غاية في الهدوء، إلا أنه سريع الحركة عندما يتطلب الأمر ذلك، وكان كثيراً ما يعصي الأوامر العسكرية عندما يرى أنه على حق.

ترك الدراسة في بداية الحرب العراقية الإيرانية مثلي عندما انتقلت وحدتنا من زاخو إلى سرسنك ثم إلى البصرة.

كنا نذهب إلى المدرسة معاً ونعود معاً لنقضي بعض الوقت في التسوق، فقد كان في طريق عودتنا إلى الوحدة مزرعة خضروات مسورة بسياج من البي آر سي يتسلق عليه نبات الليف، وللمزرعة بابان، الأول باتجاه زاخو، والثاني باتجاه وحدتنا العسكرية، ابتكر الفلاح الكردي صاحب المزرعة الصغيرة طريقة في بيع الخضروات، فهو يجلس في أحد البابين، ويجلس ابنه في الباب الآخر، فمن أراد أن

يشتري الخضروات من مزرعته يدفع ديناراً واحداً ويأخذ كيساً ورقياً خاكياً يشبه بدلاتنا العسكرية، والكيس بأنواع الخضراوات، ويخرج من الباب الثاني.

كنا نجني الطماطة والخيار والباذنجان من النبتة مباشرة ونحن مستمتعون بطريقة الشراء هذه أغلب أيام الدوام، بالإضافة إلى أننا كنا نغير زينا العسكري بالزي المدني عندما نذهب إلى المدرسة في المزرعة، ونعود لارتدائها عند عودتنا للوحدة.

خرجت من المدرسة وأنا أشعر بالتشتت، إذ نسيت الحاضر تماماً، فلا يوجد شيء يذكرني به سوى هذه الوثيقة، وفرفرة بطني التي تشكو الفراغ، إذ حلت الساعة الثانية من بعد الظهر وما زلت في زاخو، فقررت أن أتغدى في أحد مطاعمها، إذ من المؤكد أني لا أستطيع العودة إلى تربية دهوك في أثناء الدوام اليوم.

طلبت من صاحب المطعم نفر تكة، وبدأت أتناوله بهدوء شديد، ثم توجهت إلى كراج دهوك.

كنت أتأمل الطريق وكأني أسير فيه لأول مرة، ونوافذ ذاكرتي مشرعة على مصاريعها، تزدحم حولي الصور والأحداث، وما إن أنتقي حدثاً حتى يحل محله آخر، وليليان تتمرآى لي بين تلك الأحداث بشعرها الأصفر وأنفها المدبب وعينيها الخضراوين.

(إنتَ منين؟ وآني منين؟ وهالبلوه منين؟)، كنت ابتسم مثل مجنون وأنا أردد عبارة (ليليان) التي كانت غالباً ما تقولها عندما نكون على انفراد. أرددها واتلفّت لئلا يراني أحد من المسافرين في السيارة المسرعة إلى دهوك.

تذكرت ذهابي معها إلى بيتهم لتعرفني على أبيها الذي يعمل في نسج قطع الثياب الكردية، وبعد أن تغدينا، اقترحت عليّ أن تُريني جومة الحياكة في السرداب الذي يحتوي على دنان كبيرة من النبيذ المعتق.

أخذتْ ليليان تعلمني نسج قطع الثياب ونحن في غاية السعادة عندما يتلامس جسدينا بين لحظة وأخرى.

عند خروجنا من السرداب، خرجت قبلها وبقيت هي تتسلق السلم إلى أن وصلت إلى فتحة السرداب ونادتني أن أسحب يدها، فأمسكت يدها وتقارب وجهينا.

لا أعرف كيف قمت بتقبيلها قبلة خاطفة جعلتْها تصمت لبرهة لتقول بعد ذلك (اسحب إيدي هاي شبيك)، كان تلفظ الشين في (إشبيك) جيّاً لبنانية، فسحبتُ يديها وخرجنا وكأن شيئاً لم يكن.

كان لتلك القبلة أثر غيّر مجرى حياتي، فمازلت إلى الآن أشعر بها وكأنها تحدث الآن، وما زلت أسمع صوتها وهي تقول لي بعد أن أخرجتها من السرداب: (بسيها رابا موخبي).

عندما وصلتُ دهوك ليلاً طلبت من موظف استعلامات الفندق أن يوقظني في السادسة صباحاً، إذ قررتُ أن أنام مبكراً لأستيقظ مبكراً، فغداً هو اليوم الأخير للتقديم على الإمتحانات الخارجية.

حين أيقظني موظف الاستعلامات، شعرت أني لم أنم إلا قليلاً، لكني قفزت من فراشي واغتسلت بسرعة وارتديت ثيابي على عجل، وما هي إلا نصف ساعة حتى كنت في مدخل بناية المديرية العامة لتربية دهوك.

جرت معاملة التقديم بسلاسة في البداية، لكن نائب مدير الامتحانات قام بعرقلة سير التقديم قائلاً: (آني ما أوقع هاي المعاملة لأن الامتحان التمهيدي إلي يجري في ١ نيسان يستمر أسبوعين وهذا طبيعي، ولكن الامتحان النهائي يستمر شهر على الأقل، وإنت ما يصير تبقى بالإقليم شهر بدون إقامة، يعني لازم تجيب إقامة من الأسايش).

اكفهر وجهي وأنا أستمع لكلماته، فهذا هو اليوم الأخير للتقديم، والساعة الآن قاربت الحادية عشرة صباحاً، وربما يتأخر طلب الإقامة لأيام، ثم إني أعرف أنَّ الحصول على الإقامة صعب في هذه الأيام والعراق يمر بحرب أهلية مذهبية.

وعدته أني سأجلب الإقامة بعد توقيع المعاملة لكنه رفض بشدة، فخرجت من مكتبه وأنا يائس.

خرجت من تربية دهوك وأنا في غاية الحزن، وفي خيبة أمل كاملة، حتى أن نقودي أوشكت أن تنفذ، لذلك اتخذت قراري بأن أعود إلى محافظتي لعلي أعود في السنة القادمة.

في الطريق الى فندق (شيرين)، مررت قرب دائرة الأسايش، وترددت في أن أطلب الإقامة لضيق الوقت، لكنني قلت في نفسي: (ما راح أخسر شي إذا دخلت وطلبت إقامة).

سألت أحد المنتسبين عن مدير الإقامة، فأرشدني إلى مكتب المدير من دون أن يسألني ماذا أريد، وبالصدفة، دخل المكتب معي رجل كبير مسنّ ومعه زوجته وابنه، فرحب بنا المدير، وسألنا عما نريد فقال الرجل المسنّ:

ـ آني أصلي من دهوك، وكنت اشتغل ببغداد، وهسه طلعت على التقاعد، واريد أكضي الي بقى من عمري بين أهلي.

= يعني من چان بيك حيل انطيت جهدك لبغداد، وهسه من صرت شايب تريد تجي هنا، وتستلم تقاعدك من ميزانية الأقليم؟

فصمت الرجل قليلاً ثم قال:

ـ راتبي التقاعدي ما انقله للدهوك، ابقى استلم من بغداد.

= إذ هيج ماشي، راح اسويلك إقامة لخاطر عائلتك.

هشّ النقيب على طلبه، فشكره الرجل وخرج هو وعائلته، فالتفت إلي النقيب قائلاً:

ـ انت مو وياهم؟

= لا، دخلنا سوه بالصدفة.

وهنا شعر النقيب أنه ارتكب خطأ، فقال بنبرة حادة: (كردي لو عربي)؟ فأجبته بهدوء مشوب بالحذر: (عربي)، وبعد أن سمع إجابتي بدا عليه القلق، فقام من مكانه وتركني في المكتب لدقيقتين ثم عاد مبتسماً، وسألني عما أريد، فرويت له ما حدث معي بالتفصيل، فصمت قليلاً وسألني عما إذا كنت سنياً أم شيعياً والخجل باد على محياه، ولشدة كرهي لهذا السؤال، قررت أن أتخلى عن طلب الإقامة، فأجبته بأني عراقي، فقال:

ـ كلنا عراقيين، بس انت من يا مذهب؟

= ما عندي مذهب؟

ـ زين شلون تصلي، تكتف لو تسبل؟

= آني ما أصلي.

ـ زين أبوك شلون يصلي؟

= ما شايف أبوي يصلي.

ـ زين من يا محافظة؟

= الآن ببابل.

رأيت الإطمئنان على وجهه وهو يسمع كلمة بابل، فبدا عليه أنه اطمئن على الإقليم من الإرهاب، ولو اطلع على وثيقتي لوجد أني منقول من متوسطة الفلوجة إلى ثانوية بدر خان، لكنه أخرج ورقة من درج مكتبة، وطلب مني أن أكتب طلب إقامة ففعلت.

أخذ مني الورقة وأوشك أن يهمش عليها، لكنه سألني عن المدة، فقلت له: ٤٥ يوماً، من ١ حزيران الى ١٥ تموز، فسألني لي لماذا؟ فأجبته أن الإمتحان النهائي يستغرق أكثر من شهر، قال لي (لكن الامتحان في الشهر السادس ونحن قبل ٦ شهور من هذا التاريخ).

أخبرته أنّ هذا قانون تربية دهوك فهم، يريدون أن يضمنوا أن الطالب حاصل على الاقامة، فأخبرني أن قانون المخابرات لا يعطي إقامة قبل ٦ أشهر من موعدها، فتضاربت حولي القوانين.

أخبرته أن هناك تضارباً في القوانين بين الدوائر، وسألته عماذا أفعل الآن واليوم هو آخر يوم للتقديم؟

صمت قليلاً ثم أجرى اتصالاً، وتحدث بهدوء باللغة الكردية، ثم نادى منتسباً وتحدث معه بسرعة. التفت إلي وقال: (بعد نص ساعة على نهاية الدوام،

ومدير التربية ينتظرك هسه، روح له راح يساعدك)، فركبت السيارة مع المنتسب وسار بسرعة.

أعطاني مدير التربية ورقة وقلم، وطلب مني أن اكتب طلباً أوضح فيه مشكلتي، فكتبت الطلب بسرعة وأنا في مكتبه فهمش عليه، فناول المدير الطلب إلى موظفة لتترجمه إلى الكردية، فترجمته بسرعة أيضاً، لكن المدير وجد فيه أخطاء عرفتُ لاحقاً أنها إملائية بسبب ضعف في أداء الكتابة الكردية وكأنها في عصر نشوء الكتابة.

بعد أن صححت الموظفة الأخطاء وهي متذمرة، طلبت مني أن أذهب الى معاون مدير الامتحانات ليوقع الطلب ويصدروا لي باج امتحان.

وأنا في الطريق إلى معاون المدير شعرت أن متاعبَ أخرى تنتظرني هناك، كان أولها أني لم أجده في مكتبه، فخرجت مسرعاً لأسأل عنه فوجدته يهم بالخروج وهو يردد: (انتهى الدوام، انتهى الدوام)، فوقفت أمامه صامتاً وأنا أنظر إليه بغضب مصحوب بذهول، فتركني وخرج من الدائرة، مشيت على غير هدى وأنا أجر ذيول الخيبة، أفكلما اقتربت من هدفي أجد العوائق تكبر والأسوار تتكاثف؟

التقيت بالصدفة بالمترجمة، فسألتني عن سير معاملتي، فأخبرتها أن معاون مدير الامتحانات خرج من الدائرة، صمتتْ قليلاً ثم قالت: (مدير الإمتحانات موجود، وهو خوش آدمي روح له).

أخبرت المدير قصتي بتسرع، فقال لي، (لا تخاف آني ما اعوفك واطلع، سولف بهدوء)، وبعد أن رويت له قصتي، نادى على موظفة، وطلب منها أن تعد لي باجاً، وطلب مني أن أدفع ٣٠ الف دينار إلى الحسابات وهي رسوم الاشتراك في الامتحان الخارجي، وما هي الا دقائق حتى أصبح الباج بين يدي، فشكرت المدير وخرجت والفرحة لا تسعني، وبدأت أشكر كل من يواجهني.

وبينما أنا في باب الدائرة وجدت المترجمة فسألتني عما فعله مدير الامتحانات، وبعد أن أخبرتها قالت: (طبعاً المدير ما من حقه يوقع بدل المعاون، والمعاون راح يزعل ويجوز يسويلك مشكلة)، وعلى الرغم من أن كلامها أقلقني، لكني كنت أنظر إلى الباج وهو في يدي، ثم أشير لها به وأنا مبتسم بقلق.

حين خرجت من التربية ذهبت إلى مدير الأسايش فوجدت ضابطاً برتبة نقيب في غرفة المدير، سألته عن المدير فقال لي (آني المدير وهو مبتسم، هاي شبيك ما صار نص ساعة شنو نسيتني؟) فاعتذرتُ منه، فقال لي وهو يكاد يضحك: (إلي يتعامل مع معاون مدير الإمتحانات ينسى اسمه، ولكن هذا واجبه)، فقلت له (نعم واجبه، صحيح، ولكن كثير من الناس يؤدون واجبهم من دون أن يظهروا وكأنهم حاقدون على البشرية)، وقلت له: (هاي أنت موجود بعد نهاية الدوام)، فابتسم لي قائلاً: (احنه ما عدنة نهاية دوام)، ثم أخبرني أن مدير التربية اتصل به وأخبره أن المعاملة قد أنجزت، ثم أخرج من درج مكتبه كارتاً عليه رقم تلفونه، وقال لي: (احتفظ بهذا الكارت، واي قضية تتعرض إليها في الإقليم اتصل على هذا الرقم، وانطي التلفون للي يتعرضلك، وكله وياك نقيب هيمن)، فأخذت

الكارت وشكرته على ما فعله، واستأذنت للخروج وأنا أكرر شكري له وهو يردد: (سلم لي على أهل بابل).

في الثاني من كانون الأول، استيقظت في العاشرة صباحاً. كان الجو بارداً في سوق جگاير، وكأن الشتاء قد هجم فجأة، دلفت مباشرة إلى الشارع الموازي لأتناول فطوري المفضل، طلبت مع القيمر والعسل قدحاً كبيراً من الشاي، وبدأت أمارس تخلقي من جديد، ينتابني شعور رائع وأنا أتلذذ بالقيمر والعسل، وفي الوقت ذاته أردد مع نفسي: (انتهت الأزمة).

خرجت من المطعم أسير على غير هدى، إلى أن وصلت إلى السلم الحجري الأثري الذي يصعد إلى دهوك القديمة، ودون أن أدري، وجدتني أتوجه إلى الزقاق الذي يؤدي إلى بيت صديقي (دانيال).

حاولت جاهداً تذكر الأزقة، فبدأت أتوسل بذاكرتي إلى أن وصلت إلى زقاق البيت، فوقفت أمام بيته، لكني وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه، فسألت أحد المتجمهرين أمام الباب، فأجابني: أن هذا المبنى هو دائرة التجنيد.

قلت لأحدهم: لي صديق كان يسكن هنا منذ ١٨ عاماً، فصمت الرجل ولم يقل شيئاً، لكن رجلاً آخر نصحني أن أسأل راهباً لعله يعرف المسيحيين، أحببت الفكرة، فتمشيت لأسأل عن كنيسة.

يا ترى كيف يبدو دانيال الآن؟ فما زالت صورته تلوح أمامي وأنا أمشي في أزقة دهوك وكأننا في عام ١٩٨٢، فبعد أن دخلت الجيش في ١ ـ ١٠ ـ عام

١٩٧٨ بوصفي جندياً مكلفاً أكملت الدورة التدريبية في مركز تدريب الحلة، ثم نُقلت إلى زاخو لأكمل تدريباً آخر لمدة شهرين، وحين أكملت الدورة التدريبية، أرسلتُ إلى مركز تدريب الدروع في تكريت في ١ ـ ١ ـ ١٩٧٩مع ٤٤ جندياً لنتدرب على قيادة مدراعات من نوع (بي آر دي أم ٢).

بعد ثلاثة أشهر عدنا إلى زاخو سائقين ومخابرين ورماة، فكنا النواة الأولى لتشكيل كتيبة استطلاع حطين، وما هي إلا أيام حتى بدأت الكتيبة تكبر، فكان (دانيال) ضمن مجموعة نُقلتْ إلينا في تموز ١٩٧٩ من مكان لا أتذكره.

في تلك الأيام، تعرفت على دانيال. أتذكر أننا كنا في حانوت الكتيبة نتناقش حول من سيكون رئيساً للعراق بعد أحمد حسن البكر الذي أشيع عنه بأنه بحالة صحية متردية، وكان من ضمن الأسماء التي طُرحت من قبل دانيال هو طارق عزيز، وأحدهم ذكر عزة الدوري، وذكر أحدهم طه ياسين رمضان.

كنا حين نعترض على شخصية من هذه الشخصيات لا نعترض على انتمائها، إنما نعترض على إمكانيتها في قيادة العراق بعد البكر. الغريب أنه لا أحد منا رشح صدام حسين للرئاسة في وقتها.

في تلك الجلسة النقاشية اعجبت بأفكار دانيال وطريقته بالحديث على الرغم من أنه يلفظ الصاد سيناً، ويلفظ الشين جيماً لبنانية كعادة السريانيين العراقين في لفظ هذين الحرفين.

تعززت علاقتنا في موقف تعرضنا له معاً، ففي بداية تشكيل الكتيبة لم يكن الضباط قد استقروا، فهم بالكاد بنوا مطبخاً لهم وغرفة صغيرة يتناولون فيها طعامهم، وقد قرر آمر الكتيبة أن يستخدم جنديين يومياً لتنظيف الصحون، وفي أحد الأيام استدعينا أنا ودانيال لذلك العمل، لكني رفضت، وأدى رفضي إلى أن يرفض دانيال أيضاً، فاستدعانا آمر السرية وهددنا بالسجن إذ لم ننصع إلى الواجب، وهنا انتفضت وقلت له: (إن هذا ليس واجباً عسكرياً، فأنا أنهيت ثلاث دورات تدريب على القتال، وقد استغرقت الدورات ٩ أشهر، وفي النهاية أعمل منظفاً للصحون)، ثم قلت له: (بصراحة سيدي، أنا لا أرضى بهذا العمل ومستعد للسجن).

حين توجه الضابط إلى دانيال ليسأله عن موقفه، أجابه بأنه مقاتل ولا يعمل مراسلاً.

صمت الآمر قليلاً ثم قال: (اذهبوا إلى خيمكم، ولكن دير بالكم تسولفون ويه الجنود حول هذا الموضوع، تره اعتبره تمرد)، فخرجنا من غرفة الآمر وبدأنا نسرد ما حدث لكل الجنود حتى رفض كلهم هذا العمل، وهو الأمر الذي أدى إلى مكوثنا أنا ودانيال ثلاثة أيام في السجن، فأصبحت علاقتنا أقوى.

شهدت علاقتي بدانيال مواقف عصيبة كثيرة، فمرة كنا في واجب مراقبة الطائرات الإيرانية التي يحتمل أن تهاجم اللواء ٤٥ في كانون الأول ١٩٨١، وكان الجليد يرتفع الى أكثر من نصف متر، جلب لنا دانيال زجاجتين من الويسكي من اورزدي سرسنك، دفنّا إحداهما في الجليد أمام المدرعة، وبدأنا بتعاطي الأخرى

في مدرعتي، كان دانيال يجلس على مقعد السائق وأنا أجلس على مقعد المخابر، وما إن أنهينا نصف الزجاجة، حتى سمعنا إطلاق نار كثيف من قبل جنود المغاوير، وحين نظرتُ من الفتحة الزلفية للمدرعة، رأيت طائرة هيليكوبتر تحلق فوق وحدتنا والرصاص يرتطم بها من كل جانب، فقفز دانيال إلى كرسي الرامي وحاول توجيه رشاشة المدرعة نحو الطائرة، وحين شعر الطيار أننا نستطيع اسقاطه بسهولة، حلق فوق المدرعة مباشرة، ولم يعط لدانيال فرصة لتوجيه الرشاشة نحوه؛ لأن أقصى ميل للرشاشة هو ٤٥ درجة، وعندما شاهد دانيال الطائرة فوقنا مباشرة قال وهو مرتبك: (راح يشيل المدرعة)، عندها أخرجت رأسي من الباب العلوي فتفاجأت بأن الطائرة عراقية، وفوراً طلبت من دانيال أن يُنزل الرشاشة إلى الأسفل لنُفهم الطيار أننا عرفنا بأن الطائرة عراقية، بعد ذلك توجهت الطائرة إلى المطار ونزل منها نقيب مصاب بساقه وهو يصرخ: (حواوين، ما تفتهمون، ولكم هذا العلم شكبره ما شفتوه).

بعد هذه الحادثة، شكل ضابط الاستخبارات لجنة تحقيق، وحققوا معنا، وحين عرفوا أننا لم نطلق النار عن طريق شهادة الطيار، نجونا من العقوبة، عند ذلك قال دانيال وهو يضحك: (طبعا لو صاحين چان وگعناها)، وقد كان في كلامه كثير من الصواب، فلو كنا في حالة صحو تام لانتبهنا مبكراً عندما كانت الطائرة بعيدة، وكنا قد أسقطناها.

في وقت ما لا أتذكر تاريخه، تغيّب دانيال عن الدوام لمدة ثلاثة أيام، وعندما ذهبت إلى أهله، أخبروني أنه في وحدته، عندها عدت مباشرة إلى سرسنك

لأخبر الوحدة بفقدان دانيال، وبعد يومين جيء به موثوقاً من مركز شرطة الموصل، إذ وجدته الشرطة سكراناً وهو بالزي العسكري، فأوقفوه ثم أرسلوه لنا، كنت أقف بباب الوحدة عندما وصل المأمور مع دانيال، فاستقبلتهما وجئت بهما إلى غرفتنا، واستلمت دانيال منه، ووقعت على الكتاب، ولم نخبر قلم الوحدة بذلك، عندها عدوا دانيال غائبا فقط.

في ظهيرة اليوم ذاته، حضر أخواه ليسألا عنه، ففرحا كثيراً بوجوده، وبعد أن تغدينا، قررت أن أوصلهما الى دهوك بالمدرعة متحججاً بأن المدرعة بحاجة إلى وقود وعليّ أن أملأها.

وصلنا مركز دهوك في الساعة الثالثة عصراً، فركنت المدرعة أمام بيت دانيال، فخرج أبوه وطلب مني الدخول، فدخلت وبقيت ساعة تقريباً وأطفال الجيران متجمهرون حول المدرعة، ورأيت ابتسامة فخر على وجه أبيه لأن المدرعة تقف ببابهم.

في عام ١٩٨١، افترقنا عندما نقلتُ السرية الأولى من كتيبة استطلاع حطين إلى البصرة، وازدادت فرقتنا أكثر عندما وقعنا في الأسر، فلم أره في الأيام الأولى للأسر، لكن بعد ثمانية أيام وجدته نائماً في الجملون الذي جمعونا فيه في الأهواز، ولم أوقظه، فقد كنت مذهولاً آن ذاك، ثم أني لم أكن أعلم أننا سنفترق تماماً، إذ حين نقلونا من الأهواز إلى بندر أنزلي وهي المدينة التي تقع على بحر قزوين، كنت في السرية الخامسة، وهو في الأولى، فلم أره إلا مرة واحدة من خلف

السور من دون أن نتحدث، ورأيته مرة أخرى عندما عدنا من الأسر عام ١٩٩٠يوم زرته في دهوك.

وها أنا اليوم أبحث عن صديق لا أعرف ملامحه منذ ١٨ عاماً كان قصير القامة بوجه مدور أبيض يميل إلى السمرة خفيف الظل لا يلفظ كل حروف العربية بصورة صحيحة، لكنه ذكي لماح.

وصلت إلى محل نيرامسين لبيع الموبايلات، فسألت صاحب المحل عن أقرب كنيسة هنا، ابتسم لي نيرامسين وطلب مني الجلوس وسألني: (شتريد من الكنيسة)؟ فأخبرته بأني أبحث عن صديق لم أره فعلياً منذ١٨ عاماً.

أخبرني نيرام أن رجلاً عادة ما يأتي إلى ميكانيكي السيارات المقابل، اسمه دانيال فلعله هو، فنهض نيرام من مكانه وسأل الميكانيكي،فأخبرني الميكانيكي بأنه سيتصل بدانيال، إذ يمكن أن يكون هو.

تحدث الميكانيكي مع الطرف الثاني من المكالمة باللغة السريانية ثم أعطاني الهاتف وهو يقول : (هذا هو وياك).

بعد أن تحدثت معه، عرفت أنه صديقي دانيال، هو بعينه، فطلب مني أن أبقى في مكاني ليحضر إلي ولكن بعد نصف ساعة، فهو الأن في زاويته، يعمل في تصعيد البلوك على عمارة بواسطة الونج الذي يمتلكه، لكني أخبرته بأني سأذهب إلى فندق شيرين في سوق جگاير وسنلتقي هناك.

أعطيت المبايل للميكانيكي وأنا أشكره وهو فرح جداً، في حين كان نيرام مبتسماً وهو يدعوني للغداء معه، فاعتذرت وشكرتها، وقبل أن أذهب الى الفندق أنتظر دانيال أهداني نيرامسين خط كورك؛ لأن خط زين لا يعمل في دهوك، وعندما أعطيته بطاقتي الشخصية، أخبرني أنهم لا يأخذون مستمسكات على الخطوط في دهوك، لا أدري هل كان ذلك صحيحاً أم أنه أراد مجاملتي، وبعد أن عرفت رقم خطي الجديد اتصلت بدانيال لأعلمه به.

بعد غروب الشمس، رن هاتفي فعرفت أنه دانيال يخبرني بأنه بباب الفندق، نزلت مسرعاً وأنا أحاول إجراء تعديلات على صورة دانيال التي تختزنها ذاكرتي، كنت أخشى أن يكون قد جاء مع صديق له فلا أعرف أيها هو، لكني رأيت رجلاً خمسينياً يقف منفرداً قرب الباب الرئيس لفندق شيرين، وما إن وصلت إليه، عرفته وعانقته واكتفينا بذكر اسمينا ونحن نبكي.

في الطريق إلى غرفتي، كان دانيال يمزج بين السريانية والكردية والعربية ويردد: (بشينا، باش، زين) إلى أن جلسنا على السرير ينظر أحدنا للآخر وكلانا يردد: (صدگ چذب)!

سألني دانيال عن أحوالي، وأخبرني أنه توقع أني هارب لأمر ما، وأني أريد اللجوء إلى تركيا لأمر سياسي، فسردت له قصتي مع الامتحان، فعاتبني لأني لم ألجأ إليه إلا في اليوم الأخير منذ وصولي إلى دهوك، فدعاني على العشاء في بيته، لكني طلبت منه أن يريني دهوك في الليل؛ لذلك خرجنا بسيارته الدولفين إلى كلي دهوك ونحن نسترجع محطات من أيامنا الماضية عندما في العشرينات من عمرنا.

ذكرني دانيال بخلاف نشب بيني وبين فلّاح كردي في سرسنك، ففي أحد أيام كانون الأول، نويت أن أقطع شجرة لنتدفأ بخشبها من وادي (K-L) الذي تقع وحدتنا على سفحه، فنزلت ومعي بلطة كبيرة وبدأت أقطع شجرة بلوط، ودانيال ينظر إلي من على السفح، وحين كنت أضرب ساق شجرة البلوط الضخمة، جاءني فلاح كردي مهرولاً وأخبرني أن هذه الشجرة ملكه ولا ينبغي علي قطعها:

ـ لكن هذه الأشجار ملك الدولة.

= لا، هاي الگاع مالتي والشجرة شجرتي.

ـ آني آسف عبالي مو مال أحد.

= حتى لو مو مال أحد ما يصير تگطعها. تقبل آني أگطع نخلة من البصرة؟

ما إن أكمل جملته، حتى وصل دانيال وهو يحمل رشاشة كلاشنكوف، فطمئنته واعتذرت مرة ثانية من الفلاح وصعدنا إلى وحدتنا.

لقد مرت عبارة الفلاح عليّ في وقتها من دون أن أتعمق بها، فقد أثرت بي لكني لم أفهم معناها: (تقبل آني أگطع نخلة من البصرة)؟

جلسنا في أحد المطاعم في كلي دهوك وأنا أردد عبارة الفلاح التي قالها قبل أكثر ربع قرن، فوجدت نفسي أقرأها قراءة مختلفة، فقد كان الموقف كله مختلفاً،

كان الفلاح ينظر إلي كمحتل من قبل شعب آخر تمثله البصرة في هذا الموقف، فهو يقارن بين شجرة البلوط والنخلة كرمزين للشعبين.

كان دانيال يستمع لحديثي وهو مبتسم ويقول: (احنا السريانيين رمزنا شجرة الميلاد)، فضحكنا وتجاوزنا تلك الذكرى، ودانيال يقترح عليّ أن نتناول قدحين من الويسكي قبل العشاء، وحين وافقته على مقترحه أخبر صاحب المطعم بأننا لا نريد شيئاً وأننا سنخرج.

قادنا دانيال إلى محل بيع خمور، وأخذنا نصف قنينة بلاك آند وايت، ثم قطعنا مسافة لا تقل عن ٢٠ كيلومتراً خلف بحيرة السد إلى أن وصلنا إلى مكان هادئ بين الجبال، لا يوجد فيه سوى رجل مسنّ يبيع حمص وباقلاء، فأخذنا عبوتين وجلسنا نشرب في السيارة.

أخبرني دانيال أن المسيحيين في دهوك لا يتعاطون الخمر في البارات والمطاعم؛ لذلك لجأ إلى هذا المكان.

قضينا سهرتنا نتجول في محطات من ذاكرتنا نقف كثيراً عند بعضها ونرمم ما تساقط من بعضها ونحسّن بعضها، وبعد انتصاف الليل، عدت إلى الفندق على أمل أن نلتقي في اليوم التالي عندما يجيئني دانيال صباحاً ليوصلني إلى گراج أربيل؛ لأعود في نيسان القادم.

{٢}

حين اقتربت السيارة من سيطرة دهوك قادمة من أربيل في ٢٨ آذار ٢٠٠٩ انتابني قلق من أن يمنعوني من الدخول، على الرغم من القرارات الجديدة التي اتخذها الإقليم بناء على اتفاق مع الحكومة المركزية برئاسة المالكي، فقد ألغي قانون الكفالة وأصبح المواطن الفدرالي يدخل الإقليم من دون كفيل، لكني - على الرغم من ذلك - كنت قلقاً، فأقنعت نفسي أني هذه المرة أحمل معي وثائق تؤيد أن لديّ امتحان تمهيدي.

سألني أحد الضباط عن سبب قدومي، فأجبته بأني طالب لديّ امتحان، وأريته باج السماح بالامتحان، فتبسم وأعطاني ورقة صفراء كتب عليها (سياحة)، فأخذتها منه من دون نقاش، وذهبت إلى السيارة التي أقلتني من أربيل.

في صبيحة اليوم التالي استيقظت وأنا أشعر بصداع شديد بسبب حلم طويل أخمن أنه استمر لساعات وكأنني لم أنم تلك الليلة: رأيت صديقتي ليليان وهي تحاول الدخول إلى وحدتي العسكرية في سرسنگ، وكانت وحدتي على هيئة بيت فيه أكثر من عشر غرف.

دخلنا إلى مكتب الآمر، ثم غيرنا رأينا وذهبنا إلى مكتبي الخاص الذي يقع في نهاية ممر ضيق، وبينما نحن في باب الغرفة أوشكنا أن نقبل بعضنا إلا أننا سمعنا أصوات أقدام تسير باتجاهنا.

عرفت بعد لحظات أن الأصوات كانت أصوات ظلالنا التي التصقت على الجدار المجاور. كانت ظلالنا تغني أغنية قديمة لحسن زيرك، وقد تكررت لازمة الأغنية طوال زمن الحلم:

ئه م روژي، سالي تازه يه نوروزه هاتـــــه وه

زه ژ نێكي كوني كورده وبخوشي ويه هاته وه

تكررت هذه الحالة مرتين وأنا أرفض حين أسمع أصوات ظلالنا تتجادل حول قضية ما وتغني في الوقت ذاته.

بعد قليل، دخل غرفتنا أبو ليليان ومعه رجال يبدو أنهم متخاصمون، وهو الأمر الذي اضطرنا أنا وهي إلى العودة إلى مكتب الآمر، و في الطريق إلى المكتب، تفاجأنا بأننا كنا في الطابق الثاني وعلينا أن ننزل بواسطة سلم أخضر، وفي منتصف السلم سلمتان مفتوحتان مثل بابين، يشبهان إلى حد كبير أبواب المدرعة بيردم ٢.

توقفنا عند السلميتين، وانتظرت الرجل لكي يكمل إصلاحهما، وبطريقة ما، عرفت بأن السلمتين ليستا عاطلتين، وعرفت أن هذا الرجل يريد تأخيرنا؛ فضربتُ باب السلمة الأولى ثم الثانية ونزلنا، لكن الرجل أمسك بي من صدري في أسفل السلم، وقال لي بصوت من يريد العراك: (ألم تنتهي الحرب)؟ فتركته واتجهت إلى المستوصف الصحي لأتقدم بشكوى بسبب تهديده لي، وكان معي رجلان لا أعرفهما، أحدهما قصير القامة يعاني من بهاق في وجهه ويديه، لكنه قابلني بابتسامة بريئة أشعرتني بالطمأنينة، وفي الطريق إلى المستوصف الصحي،

سمعت الرجلين يتحدثان إلى الرجل الذي هددني بسوء، وكأنهما يريدان الانتقام منه.

كان باب المستوصف مزدحماً بالموتى المكشوفين. كنت أشعر أنني أرى أحد الموتى يتحرك، ولكن لا أحد يكترث؛ لذلك بدأت اصرخ بالمزدحمين لأخبرهم بأن صديقي عباس شبكي ما زال حياً. نظروا إلي وكأني طفل لا يفهم من الحياة شيئاً، ثم اقترب مني أحد المزدحمين ليخبرني بأنهم ليسوا موتى، هامساً بأذني:

ـ إنهم أحياء.

= لماذا هم كذلك؟ (بهمس)

ـ أخذوا إبر مخدرة لكي يتخلصوا من أيام القبر الأولى.

في ذلك الوقت شعرت بأني اقتنعت بإجابته، وأنها واضحة جداً!

شاهدت زميليّ اللذين أتيا معي إلى الطبيب الذي يتسلم الشكاوى، وأخبرتهما بأني تنازلت عن تقديم الشكوى، لكنهما ألحا عليّ، ودخلا الغرفة، وخرجت أنا مسرعاً أحاول تلمس الطريق إلى مكان وحدتي العسكرية، لكن الطريق كان مختلفاً، كان جميلاً وهادئاً ونظيفاً يشبه كلي دهوك، مضافاً إليه ذلك الجسر الذي يتربع على نهر لا أراه.

أخيراً اتفقنا أنا ومالكها على السعر، وعلى الرغم من أن شكلها الخارجي لم يكن كالجديد، إلا أن صاحبها أكد لي بأنها أفضل سيارة لديه. لا أعرف لماذا اشتريت هذه (الكيا ١١ راكب).

في الساعة الثانية من بعد الظهر، كان علي أن أصل الرمادي قبل الساعة الخامسة، وإلا سوف أبقى في العراء، كان ينبغي علي أن أحمل طابوقة في يدي اليمنى وقطعة شيلمان بطول مترين في يدي اليسرى وأنا أقود السيارة؛ فقيادة هذه السيارة تتطلب ذلك في وقتها.

بدت السيارة جيدة وقد قطعتُ مئة كيلو متر حتى أصل إلى مكان قيل لي إنه كرادة مريم، فبدأت السيارة وكأنها تتسلق سلماً بزاوية ٤٥ درجة، أو ربما أكثر، وفي مكان مستو من هذا السلم.

توقف السائق وطلب منا النزول، وأخبرنا أنه سيقود وحده، وأننا سنذهب مشياً لنلتقيه في نهاية السلم، وهمس بأذني بأنه سوف يعود ليقود سيارتي بعد ذلك.

حين نظرت إلى بداية السلم، وجدت سيارتي متوقفة. لم أسأل نفسي لماذا جئت مع هذا السائق؟ أو كيف جاءت سيارتي ومن قادها؟ ومتى تركتها؟ كان جل اهتمامي هو أن أقود سيارتي بنفسي، لكني كنت متأكداً بأنها لا تستطيع تسلق السلم، فلم أكن خائفاً من أنها ستنقلب، لكني خفت من كونها قديمة.

حاولت ليليان إقناعي بما قاله السائق، لكني كنت مصراً على رأيي، سألتها عن اسم المنطقة التي نحن فيها وأنا أفكر بأنها ربما تكون الكفاح، لكن ليليان كانت مصرة على أننا في كرادة مريم.

بعد أن يئست ليليان من إقناعي، أشارت بيدها اليمنى إلى نفق، وقالت بيأس: هذا النفق يؤدي إلى صفوان، فركبت سيارتي، وأنا مقتنع بأن الطريق إلى صفوان لابد أن يمر عبر العمادية.

دونت هذا الحلم على عجالة في دفتر يومياتي، ثم ذهبت إلى المديرية العامة لتربية دهوك؛ لأتأكد من وجود إسمي، وأنقذ نفسي من القلق الذي سببه لي معاون مدير الإمتحانات.

لا يمكن لي الآن أن أصف فرحتي وأنا أشاهد إسمي ضمن قوائم الذين سيؤدون الامتحان التمهيدي، لكن هناك ما يعكر صفو فرحتي غالباً، فقد تفاجأت بأمر حطم أحلامي، وهو أني يجب أن أؤدي امتحان مادة اللغة الكردية، شعرت كأنني كنت أعيش حكاية خيالية، لكنها تحولت الآن إلى كابوس مخيف.

أسرعت لإخبار أحد الموظفين بأني عربي، فأجابني بأن هذه ليست مشكلته، فطلبت مقابلة مدير عام التربية، وحين قابلته، أخبرني بأني كردستاني، بدليل أن آخر تربية أديت فيها امتحان وزاري هي تربية دهوك، ثم قال بحزم: (إحنا ما نباوع للجنسية، إحنا نباوع لآخر تربية، هي إلي تحدد الطالب كردستاني لو لا).

خرجت من التربية إلى الفندق مباشرة وأنا أشعر بيأس شديد، فأنا لا أعرف شيئاً من مادة الإمتحان هذه، حتى أني لم أر كتاب اللغة الكردية من قبل، لكني قررت أن أبحث عن الكتب المنهجية في الإقليم خشية مفاجأة أخرى، فعدت إلى التربية لعلي أجد من يدلني على طريقة للحصول على الكتب، وهناك تعاطف معي أحد المدرسين المراجعين واتصل بزميل له في مدرسة كاوه التي تقع قرب البورصة، وأخبرني أني سأجد عنده الكتب المنهجية.

حين وصلت مدرسة كاوه، وجدت ذلك المدرس قد جهز لي الكتب، فشكرته وذهبت إلى الفندق مباشرة لأقارن بينها وبين كتب المركز، علماً أن الإمتحان سيحل بعد غد.

كانت أغلب الكتب متشابهة عدا ثلاثة: هي كتاب اللغة الكردية الذي يتألف من (٢٥٦) صفحة من القطع الكبير بخط صغير، وليس فيه سوى ثلاث كلمات عربية في ثلاثة هوامش، وهو كتاب شامل يجمع بين قواعد اللغة الكردية والأدب والبلاغة.

كنت أقلب الكتاب وكأنه خال من الكتابة، شعرت وأنا أنظر في صفحاته أنه العائق القاتل أمام مروري من السادس الأدبي، أما الكتاب الثاني، فكان كتاب التاريخ الذي يختلف تماماً عن تاريخ المركز، فهو يروي قضايا الكرد وموقف القومية الكردية في الحروب العثمانية- الصفوية، والمؤامرات التي حيكت ضد القومية الكردية، ويروي قضية الموصل في الحرب العالمية الأولى، ويروي عن

نضال الكرد وتأسيسهم لدول عدة، أهمها إمارة بادينان وإمارة سوران ودولة مهاباد التي أسسها القاضي محمد في إيران بعد الحرب العالمية الثانية.

كان الكتاب ممتعاً، وكان لدي ثقة بأني سأنجح فيه بمجرد قراءته، لكن ما العمل مع كتاب اللغة الكردية؟ وكان كتاب التربية الاسلامية موجزاً سهلاً لا يركز على قضايا غير قضية الاقتصاد الاسلامي عند ابن تيمية، فكانت صفحاته قليلة، وحجمة من القطع الصغير وكأنه كراس أعد على عجل.

بعد أن قارنت بين الكتب، أقنعت نفسي بأني سأترك امتحان اللغة الكردية للإمتحان النهائي، وأعده غير موجود في الاختبار التمهيدي، واركز على كتاب التاريخ والتربية الإسلامية، لأني قد سيطرت تماماً على المادة باستثناء هذين الكتابين.

في ٣١ آذار، وهو اليوم الذي يسبق يوم الإمتحان التمهيدي، أقلني صديقي دانيال بسيارته إلى مدرسة (ده ره كي) التي تقع في جانب طريق زاويته باتجاه الشمال؛ لكي أتعرف على القاعة التي سأؤدي فيها الاختبار والمقعد الذي سأجلس عليه.

لم تختلف مقاعد مدرسة ده ره كي عن أغلب مدارس العراق البائسة، إذ كانت الأرض متربة على الرغم من صفاء جو دهوك، وكانت المقاعد التي نجلس عليها رحلات شاحبة مصنوعة من الخشب، حتى أن أرضية المدرسة شاحبة مثل الرحلات مثل الجدران مثل ثياب القائمين على الإمتحان.

بعد أن وجدت اسمي، بدأت أبحث عن اسماء أصدقائي: ليليان ومغديد، فوجدت اسم صديقي (مغديد ترزي)، لكني لم أجد ليليان، إذ عرفت لاحقاً أن هذه المدرسة مخصصة للذكور فقط! وقد شعرت بالحزن وأنا أقارن بين الماضي والحاضر، فقد كنا ندرس معاً في ثانوية مسائية مختلطة في بداية الثمانينيات، والآن، بعد مرور أكثر من ربع قرن، فصلت التربية بين الجنسين.

جلست على مقعد مغديد أنتظر، لعله يأتي ليسأل عن اسمه، كنت أخشى أني لا أعرفه عندما أراه؛ لذلك حاولت استعادة شكله: شعره المجعد الكثيف ووجهه المربع، وعقدة حاجبيه الكثيفين، كأنه قادم من أعماق التاريخ العثماني.

لم أكن أعرف مغديد عندما كنا في زاخو نهاية السبعينيات، لكني تعرفت عليه في سرسنك عندما كلفنا بواجب حماية طريق دهوك –عمادية، ولم يكن ضمن مجموعتي المكونة من مدرعتين متجحفلة مع سرية مغاوير، إذ كان ضمن مدرعتين آخريين متجفلتين مع سرية أخرى، لكننا كنا نتواصل عبر جهاز اللاسلكي (آر ١٢٣)، وكان تواصلنا شبه رسمي، فلم تتعزز علاقتي به إلا بعد عملية (دهي) أو (سيف القائد).

في ذلك اليوم، كنت أقود المدرعة، ومعي دانيال وآزاد، كانت مدرعة دانيال عاطلة وهو الأمر الذي اضطرنا أن نخرج إلى الواجب بمدرعة واحدة، كانت مهمتنا الوصول مع وجبة من المجازين لغاية (سواره توكه)، وما إن تعبر الباصات المدينة الصغيرة حتى نعود أدراجنا، كان الجوّ رائعاً وهادئاً، ولم يبق لنا

سوى ساعتين لانتهاء واجبنا في حماية الطريق، فنحن في طريق العودة الى مقر وحدتنا في ناحية سرسنك.

كان علينا التوقف لنصف ساعة في مفرق ثانوي كنا نسميه مفرق بامرني، وهو ليس المفرق الذي يصل سرسنك بزاخو، ثم نتحرك بعدها نحو سرسنك.

كنت أقود المدرعة، وكان دانيال يجلس في مكان المخابر على الرغم من أنه سائق مدرعة الا أن مدرعته كانت معطلة، فرغب في أن يخرج معنا في هذا الوجب لعلاقتي القوية به، وعلى كرسي الرماية المتحرك كان يجلس آزاد، وكان يحرك برج الرشاشة الثقيلة يمينا ويساراً متحسبا لأي مباغتة.

ابتسم دانيال وهو يتحدث بواسطة الجهاز (آر ١٢٣) مع مواقعنا الخلفية، إذ سمعته يردد: (كامل هاشم كامل هاشم)، وهي شفرة الضحك لدينا عندما نستمع الى نكته مشفرة، وحين وضعت قلنسوتي على رأسي لكي اسمع النكته، وجدت انها ليست نكتة، إنما هو أمر صادر من المقر الرئيس، ولكني لم اتمكن من فهمه لتأخري، إذ سمعت نهايته فق.

حين سألت دانيال عن العبارة المشفرة بالضبط، أخبرني أنهم يريدوننا أن نتبع الطائرة الهليكوبتر التي سوف تأتي بعد قليل، وأخبرني أنه ضحك على هذا الأمر، فكيف لمدرعة برمائية ان تتبع طائرة مروحية في هذه الجبال الوعرة؟!

بعد مدة وجيزة من التفكير، قررت أن اتصل بالمقر، علماً أن الاتصال يعد مخالفة للأوامر؛ إذ لا يُسمح لنا بالاتصال إلا في كل رأس ساعة، ولكني رأيت أن الأمر غاية في الأهمية، وفي هذه الحالة يُسمح لنا بأن نجري اتصالاً طارئاً.

حين فُتح لي خط اللاسلكي، طلبت منهم إعادة إرسال الأمر لأننا لم نفهمه بالضبط كوننا كنا في منطقة مقفوزة، وهو الأمر الذي أدى إلى تقطّع في الصوت، وحين أعادوا إصدار الأمر علمت فعلاً أننا يجب أن نتبع الطائرة العمودية القادمة من الموصل، وما هي إلا لحظات حتى جاءت الطائرة من خلفنا مخففة السرعة طالبة منا أن نتبعها.

في البداية راعى الطيار كوننا مدرعة، وبدأ يطير فوق الطريق المعبد، ولكن بعد دقائق، سلك طريقاً فوق منطقة ترابية بدأت تتهضب شيئاً فشيئاً حتى بدأنا نمشي على صخور السفح متجهين إلى جبل.

بدا لي صعود الجبل مستحيلاً؛ فأنا أعرف عن منطقة (دهي) أنها محاطة بثلاثة جبال متصلة ببعضها مشكلة مثلثاً ليس له مدخل، والذي يرمي الدخول إلى الساحة الداخلية للمثلث الجبلي، عليه أن يصعد أحد الجبال ثم يهبط ليصل إلى أرض مزروعة بمحصول الطماطم وغيرها، يشطرها جدول ماء متشكل من مصبات تقذفها عيون الماء إلى السفوح الداخلية، وهذه المنطقة وكر للمتمردين الكرد، وهي أيضا مقر رئيسي لبعض قادتهم. هذا ما كنا نسمعه من رجال المغاوير الذين يقولون إنهم كانوا يصلون إلى السفوح للمراقبة فقط.

(من أين سندخل)؟ سأل دانيال وهو في حيرة من أمره، فأجابه آزاد بأننا سوف ندخل، انتبهنا لآزاد بدهشة وهو يدعي وجود منفذ لهذه المنطقة وهو ضيق جداً يسمح بدخول المدرعة ولا يتسع لدخول دبابة، انتابني شعور بأن آزاد بوصفه كردياً متعصباً لقوميته أنه كان هنا في يوم من الأيام، كنت أفخر به عندما يعلن عن حبه للكرد، وكان يلحظ بوضوح تعاطفي مع القضية الكردية.

شيئاً فشيئاً بدأنا نصل إلى مكان يبدو مغلقاً، وكأننا على وشك الإصطدام بالجبل. وهنا أشار إلينا رامي الطائرة بيده إلى المنفذ وانسحب ليطير إلى جهة أخرى من المثلث الجبلي.

لا أخفي خوفي من محاولة الدخول الأولى، إذ بدت المدرعة وكأنها تسلق طريقاً مائلاً لأكثر من ٤٥ درجة وهو أكثر من الميل المسموح تسلقه، لكني رأيت أنني استطيع المرور لأن مسافة الميل كانت قصيرة وهي بالتأكيد أقل من ٤٥ درجة، وما أن وصلنا إلى منتصف الثغرة رأينا جنوداً من المغاوير يختبئون خلف بعض الاشجار منتظرين أمر الهجوم.

أشار إلينا ضابط لا نعرفه، يبدو أنه قائد القوة بأن نترجل من المدرعة ليشرح لنا الخطة، قال بسرعة وحزم شديدين: (إن مجموعة من الاكراد العصاة قاموا بخطف ثمانية من سائقي شاحنات أتراك، وخبؤوهم هنا، وإن تركيا هددت بقطع علاقتها التجارية مع العراق بسبب اختطاف سائقي الشاحنات، وإن قطع العلاقة بين تركيا والعراق يضر بالبلد، إذ نحن نرسل لهم النفط عبر الخط الاستراتيجي وهم يكررونه في مصافيهم ويرسلونه لنا بالشاحنات. وقد صدر

أمر من السيد الرئيس أن ننقذ السواق خلال ٢٤ ساعة، وهذه فرصتنا)، وأخبرنا بأن عدد المتمردين يبلغ حوالي ٦٠٠ والخطة كالآتي:

ستهاجم ثماني طائرات هليكوبتر المثلث من الجو، وبعد خمس دقائق من القصف الجوي ستقتحم المدرعة بيردم ٢ المنطقة، وخلفها فصيل من المغاوير، وتأخذ المدرعة دورة رمي كاملة ثم تعود أدراجها تاركة المغاوير خلف الأشجار الداخلية وفي الحفر العميقة لمزرعة الطماطم ليعالجوا رماة المتمردين من الداخل، وأن نهاية العملية ستكون عند بداية غياب الشمس أي بعد ساعة من الآن في كل الأحوال.

ما إن أنهى القائد كلامه حتى رأينا الطائرات وهي تقصف المكان بقوة. وبعد دقيقتين من القصف، قام ثلاثة جنود بإنزال جوي من الطائرة، لكنهم لم يصلوا إلى الأرض سالمين، إذ قتلوا في الجو من قبل المتمردين، وهو الأمر الذي عقّد سير الخطة، إذ أوقف القائد القصف المباشر و أمر الطائرات بالانسحاب مصدراً أمره لنا بالتقدم وفق الخطة بحذر شديد مصحوب بسرعة ممكنة.

تمكنتُ من اقتحام المكان وخلف المدرعة أكثر من ثلاثين جندياً من المغاوير، لكني لم أتمكن من إكمال دورة كاملة، إذ غرّزت المدرعة في منتصف محيط الدائرة، مواجهة الرصاص المنطلق من بنادق المتمردين، حاولت التحرك إلى الخلف وإلى الأمام لكن من دون جدوى. بعد ذلك أنزلت الدواليب الاحتياطية التي ترفع المدرعة إلى الأعلى في مثل هذه الحالات، لكن المدرعة أبت إلا أن تبقى

مغرزة وأكثر من نصف إطاراتها في الطين، عند ذلك أوقفت محاولة التحرك وبدأنا نقاتل. كانت الخطة تقتضي الإنسحاب، لكن خطتي اقتضت بقاءنا في المكان.

كانت الطائرات ترمي من بعيد، والمغاوير يرمون رصاصهم من خلف الأشجار، ونحن نمشط المنطقة متبعين أي سلاح ثقيل ممكن أن يؤثر على المدرعة.

مضت نصف ساعة من الصخب وأزيز الرصاص ودوي القنابل حتى بدأ رد المتمردين يقل شيئاً فشيئاً، وهو الأمر الذي أوحى لنا بأننا ننتصر، بدأ صوت الرمي يتقطع، وبدأ المتمردون بالانسحاب إلى الكهوف الغويطة تاركين سائقي الشاحنات الأتراك في الموقع، لعلنا نأخذهم وننسحب من المكان.

لقد تيقن المتمردون من أننا سنستمر بالقتال حتى نفك قيود الأتراك، لكن الخطة لم تكن كذلك؛ إذ كانت الأوامر تقضي بالانسحاب عند بداية غروب الشمس في كل الأحوال؛ لأن الجيش لا يستطيع خوض حرب ليلية مع المتمردين أصحاب الأرض.

بقي على الغروب ربع ساعة، لكن أمر الانسحاب صدر، وبدأت مجموعة المغاوير بالانسحاب التكتيكي، فكانوا يركضون إلى الخلف ووجوهم صوب المكان، يرمون ما تيسر من رصاص لكي يمنعوا المتمردين من الخروج من الكهوف، وقد اختفى صوت الطائرات، وبدا المكان خالياً الا من مدرعتنا وبعض الرصاصات التي ترتطم بها بين لحظة و أخرى.

حين اتصلنا بالقائد لكي يجد لنا مخرجاً؛ طلب مني محاولة قيادة المدرعة الى الفتحة الجبلية، وإذا لا أتمكن من ذلك خلال ثلاث دقائق فعلي أن اترك المدرعة أنا ورفاقي ونزحف من فتحة الهروب، وما إن أكمل أمره، بدأتُ المحاولة من دون جدوى، وفي أثناء المحاولة علت أصواتنا: دانيال ينصح بأن أضغط على دواسة الوقود ثم أرفع قدمي من الفاصل دفعة واحدة لتقفز المدرعة، وأنا أخشى من تعطل الفاصل إذا فعلت ذلك، وبيأس شديد أخذت بمشورة دانيال، وحين رفعت قدمي من الفاصل فجأة قفزت المدرعة متراً وكأنها تطير، كان عليّ أن أفعل ذلك أكثر من عشرين مرة حتى أصل الثغرة، وأنا متأكد من تعطل الفاصل إذا ما قمت بذلك عشرين مرة، لم نتفحص فتحة الهروب، لأننا متأكدون من أنها مغلقة بسبب التصاق المدرعة بالطين، لذلك بقيت أحاول السير، وبدأت أشم رائحة إزبزست الفاصل وهي تملأ المكان.

بينما نحن على هذا الحال، الكل يتكلم، فالقائد يحذر من نفاد الوقت، وآزاد يحذر بأننا إذا بقينا بعد غياب الشمس فإننا سوف نقتل شر قتلة، وأنا أطلب من القائد أن يمنحنا عشر دقائق إضافية، فقد وجدنا الطريقة التي ننسحب بها، والقائد يقول لا وقت لدينا.

بينما نحن كذلك سمعنا أصوات إطلاق نار كثيف يأتي من خلفنا باتجاه الكهوف ورأينا مدرعتين من نوع مدرعتنا تقفان خلفنا من اليمين واليسار خارج حفر المزرعة، نزل من إحداهما رجل ملثم بالكلية (غطاء الوجه والرأس) حاملاً معه سلكاً سميكا وطويلاً، زحف الرجل حتى وصل إلى مدرعتنا وربط سلك

السحب السميك ثم انسحب زحفاً، وما هي الا لحظات حتى بدأ ونج المدرعة الأخرى يسحبنا، وبدأنا نتحرك الى الخلف ونحن نرمي إلى الأمام لنغطي عملية الانسحاب.

وصلنا إلى الثغرة مبتعدين عن مدى بنادق المتمردين، فنزلنا بسرعة، وفككنا السلك وغادرنا المكان من دون أن نرى أحداً من القوة التي كانت معنا، فالكل انسحب من المكان، ولم نعرف من أين جاءت هاتان المدرعتان.

صعد الرجل الملثم على سطح مدرعتي وطرق بيده على الباب العلوي، وحين فتحته صاح بأعلى صوته (التردد الخامس).

كانت الأوامر العسكرية تقتضي بأن نختار أربع ترددات لاسلكية للإتصال بيننا، وأن أمر تغيير التردد يأتي من القيادة، لكنا نحن الجنود كنا قد وضعنا تردداً خامساً نستعمله لأغراضنا الخاصة.

حوّل دانيال جهاز اللاسلكي على التردد الخامس، وبدأنا باتصال سري مع المجموعة التي أنقذتنا، عرفنا أنهم أصدقاؤنا في المقر الخلفي في سرسنك.

أخبرونا أنهم كانوا يتنصتون على كل ما جرى سراً، وعندما تيقنوا من أننا سوف نُترك في المكان اتفقوا على أن يقوموا بعملية سرية في اللحظات الأخيرة من دون أوامر من الجهات العليا، فقد قاموا بالتحرك من المقر مقتحمين البوابة الرئيسة سائرين بأقصى سرعة وهم يرمون الرصاص في الجو مغيّرين تردد اللاسلكي لكي لا يتصل بهم أحد، وأن الفكرة كانت فكرة مغديد ترزي الذي

أخبرني أنهم أرادوا أن يأتوا قبل ذلك الوقت، ولكنهم عرفوا وقت انسحاب القوات، وأرادوا أن يصلونا في الوقت الذي لا توجد فيه قوة عسكرية غيرنا خوفاً من تعطيل المهمة لا من العقاب.

كنا نسير ببطؤ لكي لا نلحق بالقوة ويكتشفوا أمر أصدقائنا على الرغم من غياب الشمس وصعوبة الشعور بالأمان.

شكلنا رتلاً قتاليا، فسلاح المدرعة الأولى التي يقودها مغديد كان إلى الأمام، وسلاح المدرعة الثانية كان إلى اليمين باتجاه الجبل، وسلاح المدرعة الثالثة وهي مدرعتي كان إلى اليسار باتجاه الوادي. تجاهلنا المؤخرة لاعتقادنا بعدم ملاحقة المتمردين لنا.

لم نتمكن من تشغيل مصابيح الإضاءة خوفاً من قواتنا لا من المتمردين، لذلك شغلنا الاضاءة تحت الحمراء وبدأنا نرى في الظلام.

بعد غروب الشمس بنصف ساعة تقريباً كنا نحن في منتصف الطريق إلى مقرنا، وتحديداً قبل وصولنا إلى مطار بامرني العسكري.

كنا نسير ما بين جبل وواد، وكانت أرتال القوة التي انسحبت قبلنا تسبقنا بدقيقة واحدة، في هذا الوقت، تمكنت قوة من المتمردين من مهاجمة الرتل السائر أمامنا من أعلى الجبل إذ فتح المتمردون النار من سلاحهم الخفيف على سيارات إيفا التي تقل المغاوير وسيارات واز التي تقل القادة.

شاهدنا القتال لوهلة وكأننا متفرجون، ثم حددنا مكان المتمردين وبدأنا بإطلاق جحيمنا عليهم، فاسكتناهم بنصف دقيقة، وهو الأمر الذي أثار دهشة القادة.

عندما وصلنا إلى مكان كمين المتمردين، وجدنا أن قواتنا قد انسحبت تاركة سيارة إسعاف محترقة في وسط الشارع.

بعد أن وصلنا إلى مطار بامرني، لم يتمكن قائد القوة من معاقبة أصدقائنا على مخالفتهم الأوامر وتحديهم لقوانين الجيش، إذ أمر بسجن كل واحد منهم عشرة أيام يقضيها مع أهله كأجازة اعتيادية.

شكرني آزاد على أمر لم يعرفه سوانا، فعندما تم إنقاذنا وجدنا أحد المتمردين مجروحاً، وهو الأمر الذي دعانا إلى الإتصال بالقائد ليعلمنا ما يمكن فعله مع المتمرد الجريح، فتلقينا أمراً وهو أن نجلبه معنا بوصفه أسيراً، ولأننا لم نتمكن من وضعه في داخل المدرعة، وضعناه في فتحة مكسرة الأمواج التي تقع في مقدمة المدرعة، وبينما نحن ننسحب من الفتحة الجبلية، تحرك الجريح، فبدا وجهه مواجها لنا بوضع مخيف، وهنا اتصلت بالقائد طالباً منه التخلص من الأسير، فأصدر لنا أمراً بأن نسقطه وندوسه بالمدرعة.

شعرت بغضب شديد وأنا أتلقى هذا الأمر، فأوقفت المدرعة، وقمنا بإنزاله بجانب صخرة كبيرة، وبعد أن تفحصنا كتفه اليمنى لم نجد ما يدل على أنه مقاتل، ثم تفحصنا إصابته على عجالة، فضمده دانيال، وزرقه إبرة مسكنة للألم

ووضعت قربه زمزمية ماء وبعض الأرزاق الجافة وتركناه في المكان وهو ينظر إلينا بوجه شاحب غير مدرك لما يحدث.

كان شاباً لا يتجاوز عمره سبع عشرة سنة،وهنا تساءل آزاد عما إذا كنت سأفعل لو كانت كتفه اليمنى زرقاء، فأجبته أني سأفعل مافعلته بالضبط، ولكني أردت فقط أن أتأكد هل هو مقاتل أم لا، فشكرني آزاد على ما فعلت فقلت له وأنا مبتسم: (مو على مودك)، فقد فعلت ما فعلته لأمور كثيرة آخرها صداقتي مع آزاد، منها أنه أسير، ومنها أني كنت أؤيد حقه في الدفاع عن أرضه، ومنها اعتبارات إنسانية.

أبلغنا في اليوم الثاني أن نعود إلى مكان كمين المتمردين لنتفقد طاقم سيارة الإسعاف ونأتي بجثث الشهداء، فتحركنا مع الضياء الأول، وحين وصلنا إلى المكان، وجدنا سيارة الإسعاف محترقة، وجثث الشهداء والطاقم متفحمة، فقمنا بوضع عظام الشهداء المتفحمة في أكياس بحرص شديد لئلا تختلط.

أذكر أن أحد الجنود وضع عظماً لشهيد في غير كيسه بالخطأ فاعترض عليه جندي آخر، فبكى الضابط وهو يردد: (لا بأس، لا بأس)، ولا أذكر الآن هل بكيت أم لا، فالأمر يبدو مختلفاً وأنا أتذكره الآن، وكأن العمر يلعب معي ألعاب العقل، أو يرمم الصور التي تآكل بعضها ليعيدها إلى صورتها الأولى.

يااااااااااه، أين أنت الآن يا مغديد؟

انتظرتُ لربع ساعة تقريباً، ثم نهضت؛ لأني شعرت بأني تأخرت على صديقي دانيال الذي ينتظرني في باب المدرسة. طلبت من دانيال أن يقلني إلى الفندق؛ لأن يوم غد هو أول يوم في الامتحان، فلعلي أجد طريقة أحصل فيها ولو على ١٠ درجات في اللغة الكردية.

أصر دانيال أن يأتيني كل يوم امتحان في السابعة صباحاً ثم يعود في الثانية عشرة ظهراً ليعيدني إلى الفندق، لكني ترجيته أن يقلني إلى المدرسة صباحاً فقط وأنا أتكفل بالعودة لكي لا أتعبه كثيراً، فوافق بعد إلحاحي على ذلك.

صحوت في يوم امتحان اللغة الكردية من حلم بدا لي مزعجاً، وقد كنت قلقاً جداً، إذ كان عليّ أن أدونه؛ لأني أحسست أن الحلم سيضيع إذا لم أدونه الآن:

كنت أتمشى في سوق شعبي يشبه إلى حد ما سوق الفلوجة القديم المسقف، أو ربما سوق الحلة، فاستوقفني شاب بعمر ثلاثين سنة تقريباً كان يقف بباب مقهى، يحمل بيده اليسرى كتاب اللغة الكردية وهو مفتوح، كان الشاب يحاول أن يقطع ورقة من الكتاب ليشعل بها سجارته، حاولت منعه بإعطائه قداحة زرقاء، فأخذ القداحة بتعجل وأشعل بها صوفة ملفوفة على عود من الخشب يبدو أنه عصيّ على الاشتعال، وحين ظهرت فيه جمرة صغيرة بدأ ينفخ على الصوفة، وطلب مني أن أساعده في النفخ، وحين نفخت مرتين على الصوفة انتبهت بأن هذا الرجل يجلس وحيداً في المقهى وفي السوق كله، وأنه يحمل في يده اليمنى سيكيناً بنصل طويل، وأنه يفكر في طعني بوجهي؛ فابتعدت عنه وخرجت من السوق إلى شارع عريض بجانبين، وحين وصلت الجانب الثاني وقعتُ، فآلمتني

ركبتي فعجزت عن النهوض، وحينما كان ذلك الرجل يتبعني زحفاً ويوشك أن يصل إلي وبيده السكين الطويلة وأنا اصرخ بلا صوت طالبا النجدة، وقبل أن يصل إليّ، جاء رجل حليق اللحية والشارب وجهه يتوقد من الحمرة، وأخذ السكين من يد الرجل ووضعها قربي، لكن الرجل المجرم ما زال يزحف نحوي وأنا خائف أرتجف على الرغم من أن السكين قربي، إذ لم أتمكن من الإمساك بها، وحين طلبت من الرجل الحليق أن يأخذ السكين ويذهب، أجابني أنه حقق العدالة، وسيُبقى السكين قربي إلى أن أتمكن من حملها، لكني أخبرته بأني سوف أتأخر، وسوف يصل إلى السكين قبلي ويطعنني.

أبعد الرجل الحليق الرجلَ المجرم عني، وأعطاني حزمة من الأسلاك لكنه قطع السلك الأحمر وربط سلكاً أزرق كان مقطوعاً، وقال لي: (أنقذتك من السلك الأحمر لكني ربطت السلك الأزرق لتحقيق العدالة)، ولا أعرف لماذا فكرت بان السلك الأزرق له علاقة بصديقتي ليليان نيسان.

بعد أن دونت حلمي بقليل، حضر دانيال وأوصلني الى المدرسة، فوجدت كثيراً من الطلبة من الكرد والسريان والعرب والشبك، يقفون في الساحة الخارجية للمدرسة على شكل مجاميع يتذاكرون مادة اللغة الكردية، فسألت دانيال فيما إذا كان يتمكن من التعرف على مغديد ترزي من بين الطلبة، فبدأ يجول بنظره ثم استدرك بقوله: (احتمال مغديد معفي من امتحان الكردي؛ لأنه تركماني)، قال دانيال ذلك وهو يرسم ابتسامة متحرشة على وجهه المدور. لقد كان توقع دانيال في محله، إذ لم يؤد مغديد الامتحان، إذ كان مقعده خالياً في ذلك اليوم.

أخذتُ مكاني على مقعدي، وأنا لا أنوي أن أجيب على شيء من ورقة الأسئلة المقلوبة أمامي، وكنت استمع إلى الملاحظات التي يبديها مدير القاعة لأفيد منها في الأيام القادمة، فقد كان مدير القاعة حازماً وهو يصرخ بصوته الأجش ولغته العربية التي لا تخلو من لكنة كردية: (عليكم أن تعرفوا بأني لا أهتم بما عانيتموه للوصول إلى هذه القاعة، وما سأقوله لن يتكرر مرة أخرى، إحذروا من الغش وكثرة الأسئلة)، ثم أكمل الملاحظات التي لا تضيف شيئاً للطلبة الممتحنين.

عندما أصدر أمره بقلب الإسئلة، تأخرت قليلاً، وبدأت أقلبها ببطؤ وكأن لاعباً خاسراً يقلب ورقتيه في لعبة البوكر، فعلى الرغم من أن الكتابة الكردية بحرف عربي، وهناك بعض الكلمات العربية المستعملة في اللغة الكردية، إلا أني كنت أمام شفرة لا يمكن حلها، كنت أنظر إلى الورقة وكأنها بلا أسئلة. رددت مع نفسي: (٣ سنك و٨ دنر) وهما أسوأ ورقتين يمكن أن يأتياني معاً في لعبة البوكر.

كان جو قاعة الإمتحان هادئاً لكنه لا يخلو من وشوشة بين الطلبة، وشيئاً فشيئاً بدأ كثير من الطلبة يطلبون مساعدة، حتى بدا لي أن طلب المساعدة قانوني هنا.

كان المراقبون يحذّرون فقط، لكن أسئلة الطلبة لبعضهم مستمرة. كدت أقهقه عندما التفت اليّ الطالب الذي يجلس أمامي طالباً المساعدة، فأجبته بأني عربي ولا أعرف شيئاً من اللغة الكردية فلم يصدقني وبدا عليه التذمر.

بعد مضي ساعة، خرجت من القاعة، ووقفت بباب المدرسة قليلاً أفكر هل أذهب مشياً إلى الفندق أم استأجر تاكسي، وبينما أنا كذلك، رأيت الطالب الذي يجلس أمامي متجهاً نحوي وهو مبتسم ابتسامة بدت لي صفراء للوهلة الأولى:

- ڤێوه رۆ باش.

= ڤێوه رۆ باش.

- چي هه يه چي نيه؟

كنت أعرف العبارة الأولى أنها تحية مابعد الظهر، لكني كدت أضحك عندما سمعت العبارة الثانية، فقد خمنت أنه يقول لي: (شكو.. ماكو)؟ لكني تأكدت أننا في العراق؛ إذ أن هذا السؤال الشامل الذي لايترك شاردة ولا واردة إلا أرادها إجابة له، لابد أن يكون سؤالاً عراقياً.

بعد أن أوضحت له أني عربي، عرّفني على نفسه، فأخبرني بأن اسمه (نارڤين) وهو طالب كردي من مواليد زاخو، لكنه يقيم الآن في زمّار؛ لأنه منتسب في جيش الإقليم، وهو يقيم في أثناء الامتحان في بيت أخته في مركز دهوك.

كان نارڤين مستغرباً لأني عربي ومشمول بامتحان اللغة الكردية، لكنه اقتنع بعد أن رويت له قصتي، فضحك كثيراً لأنه طلب مساعدتي.

استغربتُ أيضاً لأنه اختار الامتحان باللغة العربية، فعربيته ضعيفة، وهو بالكاد يكمل جملة صحيحة، ثم إنه لا يفهم كثيراً من الجمل إلا بعد أن أكررها له،

وحين سألته عن السبب، أخبرني بأن هناك من نصحه أن الامتحان باللغة العربية أسهل من حيث التشدد في المراقبة، وهناك مجال كبير للحصول على المساعدة.

بعد ذلك اقترح علي أن نتمشى إلى سوق جكاير، وحين أوشكنا على وصول فندق شيرين، دعوته على الغداء في الفندق، لكنه أصر على أن يدعوني إلى مطعم قريب.

بعد أن تناولنا غداءنا، ذهبنا إلى الفندق معاً، وهناك طلب مني صراحة أن أغششه في الإمتحان، لا أدري لماذا استجبت لطلبه من دون ممانعة ولو بسيطة، فقد بدأنا فوراً بوضع خطط للغش في الإمتحان عندها تذكرت وصف مغديد لي عندما كان يقول لي: (إنت مقامر، وكل المقامرين يحتالون إذا أتيحت لهم الفرصة).

كان نارقين مستقتلاً، فهو يريد أن ينجح بأية وسيلة، حتى لو غش بكل الدروس، لذلك طلب مني وبإلحاح شديد أن أغششه في كل الدروس، وعندما سألته كيف تأكد بأني أعرف كل المواد؟ أجابني بأني عربي، والعربي تسهل عليه الدروس المكتوبة بالعربي، ثم إني كنت أمله الوحيد، لأن المحيطين به في قاعة الإمتحان كانوا كرداً وهو يعرف مقدرتهم في السادس الأدبي. وبعد أن رأيت إصراره هذا، عملت على مساعدته على الرغم من خطورة الموقف بالنسبة لي.

في اليوم التالي وهو يوم استراحة من الامتحانات، إذ كانت لدينا استراحة بين كل امتحانين، جاء نارفين وهو مبتسم، ومعه طريقة لتبادل المعلومات في القاعة، ولما رأيت ابتسامته العريضة سألته:

ـ شو انت مو طبيعي اليوم؟

= ليش؟ (سأل وهو مستغرب).

ـ لأن مبين عليك مرتاح.

ضحك، وكلي يقين أنه لم يفهم قصدي. كان نارفين ذكياً، لكن لغته لا تعينه على الفهم.

أراني ممحات كبيرة بحجم نصف علبة سجائر، وطلب مني أن أكتب عليها الإجابة، ثم يطلبها مني مرات عدة خلال ساعات الإمتحان، لكني اقترحت عليه أمراً آخر أكثر أماناً بالنسبة لي، وهو أن أعلمه قراءة الحروف التي تُكتب على الظهر، فبما أني أجلس خلفه، فإني سوف أكتب بمؤخرة قلم الرصاص كتابة وهمية على ظهره، وعليه أن يعرف ما كتبت، فبدأت أدربه على قراءة الحروف والأرقام، استغرق هذا التدريب أكثر من ثلاث ساعات ما بين تدريب وضحك، ولاسيما حينما يخطأ بقراءة الكلمات ويأتي المعنى معكوساً، وبعد تلك الجولة من التدريب على الغش، خرجنا لتناول الغداء، وقد أصر على أن يدفع غداءنا فرفضت وأخبرته بأني لست مدرساً خصوصياً، فدفعت عنا نحن الإثنين.

سألني عندما خرجنا من المطعم:

ـ والريازيات؟

= شبيها الرياضيات؟

ـ ما يصلح وياه كتابة على الزهر.

كان كلامه صحيحاً على الرغم من سوء لفظه؛ لذلك طلبتُ منه وقتاً لأفكر بطريقة أفضل أنقذه فيها من الرياضيات.

حقيقة لا أعرف لماذا أهتممتُ بنارڤين، وقد فكرت كثيراً بالأسباب التي جعلتني أقضي كثيراً من وقتي الثمين مشغولاً به، لكني تمكنت من إيجاد مبررات، منها أني لا أعرف أحداً لحد الآن، ومنها إيماني في أنّ تعليم المادة لمن لا يفهمها يرسخها في ذاكرة المعلم، فضلاً عن طبيعتي في التلذذ بمساعدة الناس.

في الساعة الخامسة عصراً من اليوم نفسه، جاء نارڤين لنجد حلاً للغش في الرياضيات، وليعزز تدريباته على قراءة الكتابة على الظهر، وقد ضحكنا أكثر من ذي قبل عندما كنا نتدرب، ولاسيما عندما يخطأ بقراءة الكلمات. وحينما كنا نضحك، سألته، كيف اجتاز الثالث المتوسط وهو في نظري أصعب من السادس الأدبي، فروى لي قصة غريبة جداً، ففي يوم امتحان اللغة الانكليزية، كان نارڤين قد اتفق مع صديق له يعرف اللغة الانكليزية، وكان الاتفاق يقتضي أن يأتي صديقه وينتظر في حمامات المدرسة، وعند بدء الامتحان، يدّعي نارڤين أنه أصيب بإسهال شديد مفاجئ ليخرج إلى الحمامات، ثم هناك يدس الإسئلة لصديقه فيجيب عليها صديقه، ويأخذها نارڤين، ثم يعود إلى القاعة.

نجحت الخطة في البداية، فقد أخرج نارڤين ورقة أسئلة قديمة كانت مخبأة في جيبه، ووضعها على رحلته وعليها الدفتر، ودس ورقة الإسئلة الحقيقية في جيبه، وادعى أن لديه إسهالاً بطريقة تمثيلية مضحكة تمكن بها من أن يُقنع مدير القاعة، فخرج إلى الحمام، لكنه لم يجد صديقه في الحمامات فضاقت به الدنيا، إذ كيف تضيع هذه الفرصة السانحة، عند ذلك خرج من المدرسة يركض في الشارع، وما إن يجد رجلاً يرتدي بدلة يسأله: (تعرف انگليزي)؟ لكن أغلبهم كان لا يعرف، إلى أن حظي بواحد، أجاب له الأسئلة بسرعة، ثم عاد إلى المدرسة ليدخل القاعة. كان نارڤين يروي حكايته وأنا أكاد اختنق من الضحك وأقول له: معقولة؟ فيجيبني: (هاي شبيك؟ حتى بامتحان العربي سويتها).

كان نارڤين يشكو كثيراً من كبر حجم المناهج الدراسية، فقد تكررت على لسانه عبارات من مثل: (حاطينا كتابين كل واحد ٢٠٠ صفحة كلهن انگليزي شنو إحنا إنگليز)؟ وعبارة: (هم شفت واحد خلص اعدادية وگام يحچي انگليزي)؟ أما تعليقه على كتاب الاقتصاد فكان أكثر إضحاكاً إذ يقول: (الطالب يدرس ١١ سنة ما يعرف شنو اقتصاد، ومن يصير بالسادس يلطموه بيه على عينه أها. جايبينه كتاب لا إله راس ولا رجلين كله نفس الشي).

عندما عدت إلى الفندق وجدت احتفالاً صغيراً يقيمه شباب أيزيديون، أخبروني أنه احتفال بمناسبة (الأربعاء الأحمر)، إذ يتم الإحتفال به في أول أربعاء من نيسان في كل سنة، فكان احتفال هذه السنة مميزاً بالنسبة لهم، لأن الأربعاء يوافق ١ نيسان. أخبرني أحد الشباب الإيزيديين أنه سمي بالأربعاء الأحمر لأنه في

مثل هذا اليوم، ضخَّ الرب الدم في جسم آدم، فاكتمل اللحم عليه، وجرى الدم في جسده، وبُعثت الحياة على كوكب الأرض، وكانت هذه الحادثة بداية للتقويم البشري، فهو إذاً رأس السنة الأيزيدية؛ لذلك وضع الشباب منضدة كبيرة عليها ٣٦٥ شمعة صغيرة تتخللها أنواع من الحلويات، وكانوا يتحلقون حول المنضدة، فدسست جسدي بينهم واحتفلت معهم وهم يتحدثون الكردية التي رسبت بها هذا اليوم، لكني استمتعت بالإحتفال.

طلبت من دانيال أن يأتيني مبكراً في يوم امتحان اللغة العربية، فقد طلب مني نارفين أن نقرأ قليلاً قبل الامتحان، لذلك وصلت المدرسة في السابعة صباحاً، فوجدت نارفين ينتظر، وما إن رآني حتى فرش قطعة قماش على العشب وجلسنا معاً نتذاكر قراءة الكتابة على الظهر، فضحكت وقلت له: (كنت أظن أنك تريد مراجعة المادة) فقال ساخراً: (يا مادة؟).

جلست على مقعدي وأنا ألتفت بين حين وآخر إلى مقعد مغديد إلى أن حضر، لم يتغير كثيراً فما زال شعره جعداً وكثيفاً، ومازال وجهه مربعاً لكنه ممتلئ قليلاً، التفتُّ إلى مكانه مرات عدة، وهو الأمر الذي أثار انتباهه، إذ كان ينظر إلي من دون ملامح أشك من عند رؤيتها أنه عرفني. لم أكن أريد أن أخبره الآن فنحن على وشك بدء الامتحان، لكني أردت فقط أن أحفظ ملامحه لئلا أنساها.

كنت قد اتفقت مع نارفين أن يصبر قليلاً حتى أقرأ الأسئلة وأجد حلولاً لها، لكنه بدا متعجلاً فكل دقيقة أو دقيقتين يقول لي: (ها، ها)، ثم يحك ظهره بأصابعه، وأنا أكتب على ظهره بالجهة الثانية من القلم: (اصبر).

بعد أن أكملت إجاباتي خلال أقل من ساعة خصصت الوقت المتبقي له وهو أكثر من ساعتين، وكان حينما يفهم الكتابة يحرك رأسه بالإيجاب ويحركه بالنفي حين لا يفهم، علماً أنه كثيراً ما كان يحرك رأسه بالنفي، لكن خطتنا نجحت بنسبة كبيرة، فحينما خرجنا من القاعة قبل نصف ساعة من الوقت الكلي قال لي: (انتي أحسن صديقة بالدينا)، فقلت له: (شكراً حبيبتي). لم أكن حينها أشعر بأني أغش أو أعرّض نفسي للخطر، إذ كنت سعيداً أكثر منه وأنا أرى الفرحة على محياه.

دعاني نارقين على الغداء، لكني اعتذرت منه، وأخبرته أني انتظر صديق لم أره منذ ٣٠ عاماً:

ـ منو؟

= مغديد ترزي.

ـ كردي؟

= لا، تركماني من كركوك.

صمت نارقين قليلاً ورأيت على وجهه ملامح عدم الاطمئنان على صداقتنا، فهو يظن أني لا أعرف غيره، وكأني سأبقى في خدمته طوال مدة الامتحانات ولم يعكر استفادته مني شخص آخر أبداً، وعندما كنا ننظر إلى بعضنا، خرج مغديد متوجهاً إلى سيارته، فاستأذنت من نارقين وتوجهت إليه وأنا أصيح بصوت عالٍ: (مغديد مغديد). التفت إلي وهو يقطب حاجبيه الكثيفين المتصلين

من دون أن يعرفني، فاقتربت منه وعرفته على نفسي فتذكرني من دون تفكير وتعانقنا وأخذ كلانا يربت على ظهر الآخر وخنقتنا العبرة.

أخبرني أنه انتبه إلي عندما كنت التفت إليه في قاعة الإمتحان، وحدثته نفسه أن وجهي ليس غريباً عليه لكنه لم يعرفني.

بعد ذلك ركبت سيارته وذهبنا إلى مقر إقامته في فندق قريب من فندق شيرين. كان الفندق بسيطا أقل من ٣ نجوم جعلني أقيس عليه وضع مغديد المادي، لكنه اعتذر لي عن رداءة الفندق وأخبرني أنه اختاره لأن أمامه ساحة يركن فيها سيارته. لم نمكث كثيراً هناك، وسرعان ما خرجنا لنتغدى فتذكرت نارفين واتصلت به، فوجدته زعلاناً؛ لأني تركته بباب المدرسة. بعد قليل حضر نارفين إلى المطعم، وعرفته على مغديد، لكني لم أذكر له أننا كنا في الجيش معاً، فقد تكون بطولاتنا القديمة إرهابا بالنسبة لنارفين، إذ نبهني دانيال لذلك حينما قال لي ذات يوم: (لا تقل لأحد أننا كنا في الجيش هنا).

مازال مغديد كما كان، لم يتغير فيه شيء، رجل مخلص يحب الخير للآخرين على استعداد للتضحية في سبيل الصداقة، لكني لاحظت عليه أنه يشعر بأنه مسروق، لم أكن أعرف هذه الصفة فيما إذا كانت قديمة أم تخلّقت عنده خلال الثلاثين سنة الماضية، وعندما أخبرني أن يشعر بأنه مسروق ومبتذل، أخبرته بأننا كلنا مسروقون ومبتذلون هذه الأيام، فضحك وقال لي: (أنت دائماً تبسط الأمور).

كان مغديد يصفني بأني غالباً ما أجد طريقة لتغيير الموضوع المؤلم أو تبسيطه؛ لأقلل من مدى احتمالات المقابل. ولكي نتخلص من ألم الحاضر المسروق، عدنا إلى ماضينا نتذكر أهم محطاته، فذكرني مغديد بسرقة حدثت في وحدتنا، إذ صحا مغديد من النوم ولم يجد ساعته، فانتبهنا إلى ساعاتنا فلم نجدها، في تلك الصبيحة، فقدنا أكثر من عشر ساعات، وهو الأمر الذي أدّى إلى أن تتحول هذه السرقة إلى قضية في كتيبة استطلاع حطين.

حينما كنا نحلل الموضوع من أجل الوصول إلى حل، انتبهنا إلى أن أحد زملائنا في الخيمة كان الوحيد الذي يرتدي ساعته، وحين سألناه، أجابنا بأنها كانت عند أحد الحراس لأن ذلك الحارس طلبها منه بعد منتصف الليل، فروى لنا طريقة الحارس في طلب الساعة فقال: (فزيت من النوم، لگيت الحارس حاط إيده على ساعتي يفتح بيها ويهمس: "ممكن تنطيني ساعتك" فگتله عادي إخذها).

عند ذلك، عرفنا طريقة هذا الحارس بالسرقة، فوضعنا خطة لتفتيش حقيبته، وقد تفاجأنا حين وجدنا أكثر من ١٥ ساعة في الحقيبة، فأخذناها من دون أن نخبره، وأعدناها إلى أصحابها، واتفقنا أن يرتدي كلّ منهم ساعته وكأن شيئاً لم يكن،

كنا نشاهد السارق وهو يشاهدنا وبأيدينا الساعات. كانت خطة مغديد أن لا نذكر الأمر نهائياً، ونراقب ردة فعله، وقد كنا نعذبه وهو ينظر إلينا من دون أية كلمة.

بعد يومين من هذه الحادثة، أصيب ذلك الجندي بالجنون، وأحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية، فشعرنا بتأنيب الضمير، فلو قدمنا شكوى ضده وسُجن لكان أفضل لنا وله.

في الطريق إلى الفندق، أخبرني مغديد أنه تزوج وهو بعمر ٣٤ سنة مثلي تماماً وأصبح لديه ولد وبنت، وهو يعمل مقاولاً في بيع وشراء الأراضي في كركوك، ويطمح أن يمتلك أكثر من أرض.

قبل أن نذهب إلى فندق شيرين، أوصلنا نارفين إلى بيت أخته على أمل اللقاء ثانية بعد العشاء، لكن نارفين طلب مني أن نتدرب مرة أخرى على الكتابة على الظهر، فطلبت منه أن نؤجل ذلك ليوم غد فهو يوم عطلة بالنسبة لنا، فوافق على مضض واعتذر عن القدوم بعد العشاء، فقد كان نارفين يشعر أنه يخسر المعركة مع مغديد.

في المساء اتصل بي دانيال ليدعوني على العشاء في بيته، فوافقت واتصلت بمغديد فوافق، فأخبرت دانيال أني سآتي في سيارة مغديد ترزي، فضحك بصوت عال وقال: (معقولة؟ أبد ما تتغير. غير تگلي شفت مغديد)، ثم عاد وضحك مرة ثانية، وقال: (ماشي، مردودتلك أسرع من البرق. انتظركم هسه).

في الطريق إلى بيت دانيال، أخبرت مغديد أني جلست على مقعده الإمتحاني عندما ذهبت الى المدرسة لأعرف مكاني، وقد انتظرته في يوم امتحان اللغة الكردية؛ لأني لم أكن أعلم أنه معفوّ من الامتحان، فأخبرني أنه ليس معفواً

لأنه حصل على شهادة الثالث المتوسط من زاخو، وإذا به يروي ما حدث لي بالضبط، إذ تفاجأ بمادة اللغة الكردية، لكنه يختلف عني، فهو يتحدث اللغة الكردية، ويبدو أنه سيتمكن منها إذا قرأ الكتاب، ثم قال لي: (اطمئن القانون هنا مختلف عن قوانيننا في المركز، اهنا عدهم قانون الاستيفاء، يعني اذا رسبنا باللغة الكردية، السنة الثانية نمتحن بس كردي، ونعتبر ناجحين بكل الدروس إلي نجحنا بيها).

بعد أن أكمل كلامه، سألته إذا كان متأكداً، فأجاب بأنه متأكد مئة بالمئة، كانت عبارته الأخيرة منقذة لي من القلق في هذا المجال، فأنا متأكد أيضاً أنني أتمكن من اجتياز مادة اللغة الكردية إذا مُنحت سنة من الوقت.

أخبرت مغديد أني تذكرت ما فعله في عملية دهي، وأني مازلت أذكر تفاصيل تلك العملية، فاغرورقت عينانا ونحن نتذكر محطات من تلك العملية، فتحدث عن آزاد وموقفه الصعب تلك الأيام، إذ كان آزاد كردياً، وكان عليه أن يقاتل كرداً، فقلت له نحن مثله، إذ نحن عراقيون وكان علينا أن نقاتل عراقيين مثلنا، لكن عزاءنا أننا مجبورون على ذلك العمل، فنحن جنود مكلفون بأداء الواجب على الرغم من أننا أديناه باخلاص.

عند ذلك قال مغديد: (إلي سويته آني بعملية دهي مو واجب وطني، كان واجب اجتماعي، يعني واجب الصداقة، الصداقة في الحرب تصنع المعجزات. إنت تتصور إلي صار من أجل الوطن؟ لا، كان من أجل الصداقة، من أجلك ومن أجل دانيال وآزاد)، كان يتحدث والدمعة على طرف عينه وعيني أيضاً.

حاولت أن أذكّر مغديد بليليان، لكنه لم يتذكرها؛ فقلت له: (ليليان نيسان شبيك؟ هاي الطالبة إلي كانت ويانة تگعد دائماً في الرحلة الثالثة على اليسار، أمام رحلتنه، شعرها أصفر وخشمها مدبب).

فصمت مغديد قليلاً وردد: (ليليان نيسان) فشممت رائحة الخباثة من نبرات صوته، وأجبته: (ها تذكرتها)؟ لكنه فاجأني بقوله: (إنت مو تگول ما تذكر الوجوه، شو هاي شعرها أصفر وخشمها منبل)؟ ووضع يده على رجلي وقال: (انتبه، تره هسه عمرها قريب الخمسين، واحنه مو إحنه).

صدمتني عبارة مغديد الأخيرة، إذ انتبهت فعلاً لأعمارنا الآن، فالشباب الأصحاء صاروا كهولاً متعبين، لكن على الرغم من أننا أبناء خمسين سنة تقريباً لكن ذكرياتنا تجعلنا نسلك سلوك الشباب، بل الأطفال أحياناً.

سلكنا شارع محمـدكي في الطرف الشمالي لمركز دهوك، ومشينا قليلاً لنجد دانيال وأباه في استقبالنا في باب البيت، فقال دانيال لأبيه مشيراً إلى مغديد: (هذا إلي أنقذ حياتنا في عملية دهي).

عرفت أن دانيال قال ذلك من خلال لفظة (دهي)، فقد كان يتحدث بالسريانية؛ لأن أباه لا يعرف العربية، عانق أبو دانيال مغديد ثم نظر إلي وقال بلغته السريانية الرقيقة: (آنا بذونخ.. آنا تحرونخ.. آني خاوري فروني)، فرحت كثيراً لأنه عرفني وتذكرني ونعتني بأني صديقه القديم. ثم أشار إلى باب بيته، وقال وهو يطلب من الدخول : (بشينا بيخو).

دخلنا بيتهم وجلسنا حول منضدة كبيرة أعدت لنا، وما هي إلا لحظات حتى أحضر دانيال زجاجتين من البيرة لكل منا، وأنواع كثيرة من المقبلات بضمنها طبق أبيه المعروف وهو (قلية باردة).

كنت أنظر إلى مغديد لأعرف من ملامحه هل ما زال يتعاطى البيرة أم لا، لكنه أجابني بأن فتح زجاجته وصب جزءاً منها في كأس كبيرة، عند ذلك شعرت بالإطمئنان على مغديد، ورأيت ذلك الشعور على وجه دانيال أيضاً.

استأذن أبو دانيال ليعطينا الحرية الكافية، عند ذلك قلت لدانيال : (آني أحتاج برميل من البيرة بيه حنفية، أنام جواه وافتح الحنفية بحلكي وأظل أشرب إلى أن أقضي على البرميل أو يقضي عليّ)، ثم علَتْ أصواتنا بالضحك أنا ومغديد في حين قال دانيال: (راح تحتاجه فعلاً بعد شويه، مو گتلك مردودة)، صدمتني عبارة دانيال، فتوقعت أن أسمع منه خبراً مزعجاً، لكن ما الذي يمكن أن يعرفه دانيال ولا أعرفه؟ مرت فترة صمت قليلة فدخلت علينا امرأة خمسينية تحمل بين يديها طبقاً من القلية الباردة وهي تردد: (بالعافية عليكم). نظرت إلى دانيال وسألته:

ـ هاي أختك سيمون؟

= لا، سيمون باستراليا هي وزوجها.

فتوقع مغديد أن تكون المرأة زوجة دانيال أم ياقو. فرد عليه دانيال بالنفي وهو يكاد يقع من الضحك.

ما يريحني في هذا الأمر أني أعرف صديقي دانيال جيداً فهو يحاول استغلال أية مناسبة للفرح والضحك، فعندما ذهبنا إلى (دريم سيتي) قبل يومين، أخبرني أنه يريد أن يريني شيئاً مهماً، فمشيت معه، فأوقفني أمام مرآة كبيرة وهمس في أذني مشيراً إلى صورتي في المرآة: (هذا إنت).

على الرغم من أن دانيال يضحك كثيراً على أبسط الطرائف، إلا أن ضحكه هذه المرة كان أكثر، وفيه شيء من التحدي والشماتة، عند ذلك نظرتُ إلى المرآة وقالت: (راح أنطيك مهله خمس دقايق، إذا ما عرفتني راح أروح وبعد ما تشوفني).

كان صوتها يرن في أذني، فقد سمعت هذا الصوت من قبل، فصحت بصوت عال: (يابويه، ليليان)؟ ثم وقفت على قدمي، وأوشكت أن أعانقها وهي تحدق بي حتى اتسعت عيناها بصورة لم أرها من قبل، لكني اكتفيت بمصافحتها بكلتا يدي وهي تقول: (شلون ما عرفتني، شلووون)؟ طلبت منها أن تجلس ومغديد متفاجئ مما يحصل، فأخبرته أنها ليليان زميلتنا التي حدثتك عنها، فلم يتذكر شكلها، لكنه استدرك وقال: (تذكرت، كانت تجلس في الرحلة الثالثة من جهة الباب). جلست ليليان معنا لفترة قصيرة استعدنا فيها كثيراً مما كنا نفعله في ثانوية بدر خان، ونسينا مقلب دانيال.

عندما تحدثت مع دانيال قبل أيام عن ليليان، ذهب إلى مدرستها وسأل عنها وتعرف عليها وذكرني لها واتفقا على هذا اللقاء، كانت دعوة دانيال لنا على العشاء مؤامرة حاكاها معاً، لكنها من أجمل المؤامرات.

أخبرتنا ليليان أنها تقيم في بيت أخيها الآن وأنها كانت متزوجة ولديها بنت وحيدة، فقد توفي زوجها مرضاً عندما كانوا مختبئين على أحد الجبال في أثناء الحرب الكردية- الكردية عام ١٩٩٦، إذ تعودوا أن يحتموا بالجبال في أثناء الحروب الأهلية الكثيرة بين الكرد والحكومة العراقية، والكرد فيما بينهم. وبعد وفاته رفضت الزواج مرة ثانية واهتمت بتربية ابنتها سارة. وهي تعمل في دائرة بريد زاخو.

عندما قاربت الساعة الحادية عشرة، اتفقنا على لقاء آخر، فاقترح علينا دانيال أن نسافر إلى سرسنك، لكن ليليان اقترحت أن تكون السفرة في نهاية الإمتحان، أو في نهاية الامتحان النهائي بعد ثلاثة أشهر فوافقنا جميعاً.

بعد نهاية اليوم الأخير من الامتحان التمهيدي طلب منا دانيال أن نحضر مسيرة عيد القيامة، فسرنا معاً نرفع الأعلام السريانية. أوحت إلي هذه المسيرة بأن دهوك مدينة سريانية، إذ أثرت ثقافة السريان في أجواء المدينة، فكان يبدو على شباب المدينة بما فيهم الكرد والعرب والأيزيديين أنهم سريانيون، وعلى الرغم من أن المساجد أكثر من الكنائس، إلا أنه لم يكن هناك طابعاً إسلامياً في المدينة، فلا وجود واضح لحجاب الفتيات الذي انتشر في بغداد ابتداء من الحملة الإيمانية التي أطلقها البكر وأصر عليها صدام وفرضتها حكومات العراق المتعاقبة بعد ٢٠٠٣ ورسختها أسلحة الملشيات الدينية، فكان الحجاب في دهوك مقصور على النساء المسنّات وبعض الفتيات العربيات اللواتي أتين مع عوائلهن لأجل السياحة.

كانت ليليان ترتدي الزي السرياني الفضفاض والمزخرف، وبين حين وآخر ينفرد دانيال ومغديد وننفرد أنا وليليان نتبادل أحاديث شتى أغلبها من الذاكرة، وفجأة قالت ليليان: (هل من حقنا أن نتذكر، لو هذا يعتبر خيانة)؟ فأجبتها أن الأمر يتعلق بما نتذكره، ووعدتها أنها ذكريات فقط وحبي لها الآن يختلف عما سبق، فلم نعد نختلس الفرص ونختبئ في أماكن لنتبادل الأحاديث الغزلية والقبلات.

بعد ذلك أخبرتها أنها لم تفارق ذاكرتي، وأنها زارتني في أحلامي مرات كثيرة. وهنا وضعت يدها اليسرى على فمي وقالت: (اسكت، اسكت) واغرورقت عيناها بدمعة ممزوجة بابتسامات شاحبة توزعها على المحتفلين. وضعت يدي على كتفها وأخبرتها أننا اتفقنا على سفرة يوم غد وأن أصدقائي وافقوا على سفرة محدودة احتفالاً بنهاية الامتحان، وطلبت منها أن تأتي معنا غداً إلى العمادية وسرسنك، صمتت قليلاً ثم وافقت وهي تقول: (سفرة، ها) فأجبتها أنها سفرة فقط.

في الساعة السابعة من صبيحة يوم ١٦ نيسان من عام ٢٠٠٩، كنا جاهزين للسفر إلى العمادية، لكن ليليان تأخرت قليلاً، وبعد نصف ساعة جاءت ولم تعتذر عن التأخير، فصعدت السيارة وهي تقول بدلع: (عيني ماكو بنية تجي حسب الموعد حتى ما يكولون عليها متلهفة).

توجهنا في سيارة دانيال إلى العمادية التي تبعد أقل من ٧٠ كيلومتراً عن دهوك، لكن تعرجات الطريق وكثافة الذكريات جعلت الطريق أطول بكثير من

الطبيعي، جلست ليليان الى جانب دانيال، وكنا أنا ومغديد نجلس في المقعد الخلفي.

أخبرنا دانيال أننا سنتناول الفطور في زاويته التي تبعد ١٥ كيلومتراً عن مركز دهوك فقالت ليليان: (گيمر ومربى وصمون حار)، ونظرت إليّ وهي مبتسمة ابتسامة توحي بأنها لم تنس ما أحب، في حين كان مغديد يتأمل الجبل الذي يشهق على يسارنا، فمن المؤكد أنه - مثلي تماماً ومثل دانيال - يتذكر الآن عندما كنا نمر من هنا بمدرعاتنا البيردم٢ قبل ثلاثين عاماً نحمي طريق دهوك - العمادية.

كنا معاً لسنوات، عندما يكون هناك خطر يستدعوننا لنحسم الأمر، فعلنا ذلك في عشرات من المهمات الصعبة ولم نفقد أحداً منا، ولم نترك أحداً أصيب في أرض المعركة.

كنا نثق ببعضنا، حتى في ذلك اليوم الذي أوشكت فيه أن أيأس من المساعدة، فتدخل هذا الذي يجلس صامتاً بجانبي يتأمل الطريق وحسم الأمر.

بعد ربع ساعة من التأمل والأحاديث المختصرة، وصلنا إلى مصيف زاويته، فركن دانيال السيارة، ونزلنا ورؤوسنا إلى الأعلى محدقين بالجبال، في حين كان دانيال مشغولاً في حقيبة السيارة الخلفية ليُخرج لنا فطورنا الصباحي الذي أعدته ليليان.

فرشت ليليان بطانية على الأرض، وبدأت بترتيب الصحون وهي تترنم بأغنية فيروز: (من عزّ النوم بتسرقني)، وحينما وصلت إلى مقطع (بطلت بيوقع مني الكاس...) التفت إلي وكأنها تريد أن تمرر إلي رسالة عن طريق هذا المقطع. كنت مع ما تريد فأنا الآن لا أطمع بغير الذكرى.

بدأ دانيال يردد المقطع معها ثم تبعه مغديد ورددته أنا ثم حوّرته قليلاً: (ما زلت بيوقع مني الكاس، وقت الي بشوفك بين الناس)، فردده الجميع بصيغته المحورة كثيراً، ثم منحنا المقطعَ لكنة عراقية والابتسامة العريضة على وجوهنا، وحينما كنا غارقين في هذا المقطع، فاجأتنا السماء بمطر كثيف ورياح عاصفة لكننا مازلنا نغني صامدين أمام تغيرات الجو المفاجئة، فتبللت ثيابنا وتبعثر فطورنا الصباحي، والأغنية مستمرة من دون توقف، فتوجهت إلى باب السيارة الأمامي وفتحته وأنا أشير إلى ليليان لتركب وأنا أردد: (مازلت بيوگع مني الكاس، وكت الي أشوفك بين الناس)، فصعدت وهي تتدلع، وصعد دانيال ومغديد وأنا، وتركنا حاجياتنا مبعثرة في أرض المصيف.

تحركت السيارة ونحن نضحك، وكانت ثيابنا تقطر ماءً، وعلى الرغم من ذلك بدأنا نلتق صوراً لبعضنا، فاقترحت عليهم أن نترك السيارة ونلتقط صوراً في المطر، فالتقطنا صوراً ثلاثية وثنائية لبعضنا ثم التقطت لنا ليليان سيلفي، أحببت الفكرة، إذ كنت لا أعرف معنى سيلفي وتصورت أنها فكرة ليليان.

بعد أن تجاوزنا مجمع باگيرات قاصدين مصيف سواره توكه سأل مغديد ليليان:

ـ تعرفين تسوقين؟

= طبعاً ، آني سائقة ماهرة.

ـ خمنت إنك سائقة ماهرة وردت أتأكد.

= ليش خمنت وشلون عرفت.

في إجابته على سؤالها، تحدث مغديد عن رابط يربطنا نحن الأربعة وهو السياقة، فقد انتبه إلى أننا: دانيال ومغديد وأنا ثلاثتنا كنا سواق مدرعات بيردم٢، وليس بيننا رامي أو مخابر، وأن علاقة السائق بالطريق تصنع له ذكرى تختلف عن ذكريات الرماة والمخابرين، لذلك هم يحبون السفرات على الطرق التي سلكوها في ظروف أخرى، في حين كان دانيال يحب السياقة لأنها هروب مستمر.

وصلنا إلى ضواحي سواره توكا، فلم أجد استداراتها الأربع، سألت دانيال عن الطريق، فأجابني أن الحكومة شقت طريقاً أسهل، وأشار بيده إلى الأسفل؛ ليرينا الطريق القديم، فطلبت منهم أن نترجل لنشاهد الطريق القديم الذي يبدو لي أجمل على الرغم من العشب الذي نبت في وسطه، كان بالكاد يرى، فهو طريق ضيق لا يتسع إلا لسيارة واحدة.

وقف مغديد ينظر بشغف إلى الطريق وهو يقول: (معقولة كنا نسوق مدرعاتنا في هذا الطريق)؟ فضحك دانيال وقال: (هو بس نسوق؟ مرات نرجع بگ)، قال دانيال ذلك متذكراً موقفاً حدث لي على هذا الطريق، فذات واجب انطلقنا من سرسنك إلى سواره توكا، وعندما وصلت إلى الاستدارة الأولى من

جهة سرسنك، أوصلت لنا الاستخبارات العسكرية معلومة مفادها أن هناك كميناً بعد قمة سواره توكه بقليل؛ فتوجب علينا الإنسحاب، كنت حينها أقود مدرعة (بيردم٢) وهي ذات دواليب ثمانية، وأطول وأعرض من المدرعة الكبيرة (بي تي آر ٦٠)، وكنا نثق بالاستخبارات العسكرية التي زرعت عملاء لها في أغلب المدن في دهوك، فمرة دخلنا مدينة؛ لنفتش عن السلاح، فدخلتُ مسجداً لأغسل يدي ورجلي، وحين جلست في المكان المخصص للوضوء جنب شاب يرتدي زياً كردياً، نكزني ذلك الشاب بكوعه ونظر إلي وهو مبتسم، وإذا به أحد جنود الإستخبارات العسكرية في لواء ٤٥، وعندما رآني مندهشاً من وجوده هنا بهذا الزي، غمزني بإحدى عينيه لئلا ينكشف من قبل السكان المحليين الذين كانوا يتوضؤون استعداداً للصلاة.

كانت عملية الاستدارة والعودة شبه مستحيلة، فقد كان طول المدرعة يساوي عرض الطريق. بحثت عن أعرض نقطة في الشارع، وحاولت الاستدارة، وفي اللحظة التي كنت فيها أرجع إلى الخلف، طاف الدولابان الخلفيان في الوادي وبقيت المدرعة متزنة على ستة دواليب، فضغطت على الكابح لكنه لم يستجب؛ إذ بقيت المدرعة تسير إلى الخلف ببطء شديد مصدرةً صوتاً مخيفاً هو صوت ازيزت الكابح، عندها سحبت الكابح اليدوي ولم تتوقف المدرعة، في تلك اللحظة أيقنت بأنني أسقط في الوادي السحيق وأنا أسمع صوت (آزاد) يردد الشهادتين، لكني ضغطت على الكابح بكعب قدمي اليمنى، وكانت أصابع قدمي نفسها على دواسة الوقود تضغطها بقوة، وفي حركة سريعة ضغطت دواسة الفاصل وحولت عصا التبديل على النمرة واحد ورفعت رجلي اليسرى من الفاصل فقفزت المدرعة

إلى الأمام وارتطمت بالجبل. لقد نجوت بأعجوبة، عندها أدرت رأسي إلى آزاد وصرخت به: (إفعل شيئاً بدلاً من ترديد الشهادتين)، فصمت باهتاً راسماً على وجهه ابتسامة خائفة.

لم يتوقف المطر، أظن أن السماء تظن أنها تزعجنا، في حين يبدو الأمر خلاف ذلك لدينا، لكنها مصرة على أن تبقى تنث ماءها وأحياناً تسيله على رؤسنا.

اقترح علينا دانيال اقتراحاً أعرف أهدافه، وهو أن نتجاوز مصيف سرسنك إلى سولاف والعمادية، ثم نتوقف في سرسنك عند عودتنا، فوافقنا جميعاً على المقترح كلاً بحسب ذكرياته، فمغليد يريد أن يجعل رؤيته للربية التي كان رعيله يستغلها محطة أخيرة، وأنا وليليان متفقان في الذكريات في هذه المرحلة، ودانيال يسور ذكرياتنا وينظم تواليها.

بعد عشرين كيلومتراً من سرسنك، وصلنا إلى مصيف سولاف ونزلنا في قلب استدارته لالتقاط صور، لكن المطر بدأ يزداد، وكأن كثافته مؤقتة على نزولنا من السيارة، وعلى الرغم من كثافة المطر، إلا أننا نزلنا وتركنا السيارة في قلب الاستداره وتمشينا إلى نهاية الاستدارة من جهة العمادية لنلتقط صوراً قرب مجرى ماء كان يقال إنّ ماءه يجري من المنخفض إلى المرتفع. بعد ذلك جلسنا على الرصيف المطلي بالابيض والأصفر في حين عاد دانيال ليجلب السيارة.

ما هي إلا لحظات، حتى كنا تحت العمادية، فبدأ دانيال يحذر من تجاوز الاستدارات الحادة التي ترتقي بنا إلى مدينة العمادية، قال مغديد: (كم ذكرى لنا مع هذه الاستدارات)؟ فهو يرى أن ذكرى هذا الاستدارات يختزنها السائق وتصبح مؤسسةً لطبيعته فيما بعد. أما من يجلس بجانب السائق أو خلفه فلا يمتلك الشعور الذي يستحق أن يكون ذكرى.

كان علينا أن نتسلق ١٤٠٠ متر وهو ارتفاع عاصمة البادينانيين عن مستوى سطح البحر ونحن نراقب الطريق عبر الزجاجة الأمامية للمدرعة وهي لا تتجاوز قدم مربع، لنصل إلى القمة ونحن في غاية السعادة، ولا أعرف لماذا كنت اتقدم الرتل ويليني دانيال.

المدينة مبنية على قمة جبل، هذه القمة التي جعلت المدن المحيطة تابعة لها إدارياً مثل جامانكي وسرسنك وديرلوك وبامرني و شيلادزي و كاني ماسي، حتى أن الطريق يسمى طريق العمادية رسمياً، علماً أنه يصل أربيل بدهوك.

ظل الكرد البادينانيون يحكمون المنطقة من هذه العاصمة قرابة خمسة قرون، وقد صمدت إمارة بادينان أمام الغزوات الصفوية والعثمانية ببسالة، لكن أخيراً سقطت في منتصف القرن التاسع عشر على يد إمارة كردية أخرى هي إمارة سوران.

أذكر آخر صعود لي لهذه المدينة التاريخية العريقة كان في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، في حينها توجهنا إلى قلعة العمادية ففاجأنا بالطائرات الإيرانية

التي تحاول أن تقصف المدينة. كان الإيرانيون يظنون أن العمادية قاعدة عسكرية، وهي ليست كذلك. والآن يخيّل لي أن ذلك القصف كان استعادة للحرب بين الصفويين والبادنانيين بصورة مبالغ فيها.

عندما رأينا طائرتين إيرانيتين في الأفق متجهتين للعمادية كان آزاد في المسجد يتهيأ لصلاة الظهر، فأخذتُ مكانه على مقعد الرامي، وبدأت أراقب إحدى الطائرتين لحين ما تصل إلى مدى سلاحنا البالغ سبعة آلاف متر، في حين اهتمت المدرعة الثانية بالطائرة الثانية.

وما إن حددتُ المدى، بدأت بإطلاق النار على الطائرة. حاول الطيار الإيراني الإنحراف باتجاه ديريلوك، لكني كنت ألاحقه أينما ذهب، كنت أشاهد دانيال وهو يقفز عند كل رشقة رصاص أوجهها على الطائرة ويشير لي أن أقصر المدى قليلاً لحين ما جاء آزاد وحل محلي، فهربت الطائرتان وكأن طياريها قد علما أن الرامي الحقيقي قد حضر.

كانت ليليان تضع يديها على عينيها عندما تستدير السيارة، علماً أن دانيال يسير ببطؤ وأكاد أسمع دقات قلبها، في حين كنا نحن الثلاثة مستمتعين بالمنظر، على الرغم من خطورة الطريق في هذا الجو الماطر، فالمطر بدأ يزداد.

رفعت ليليان يديها عن عينيها وقالت بنبرة ساخرة: (آني شعندي جايه ويه مجموعة من الطلبة الجنود الأسرى؟ شنو آني آمر فصيـــــل)؟ ضحكنا جميعاً فقال

دانيال: (آني عريف الرعيل) عند ذلك قال مغديد: (حقيقة آني ما أدري شنو) فأجبته: (إنت آمر وحلة الإنقاذ).

ما إن وصلنا العمادية حتى أخرجنا هواتفنا لنلتقط صوراً في المطر. أحياناً أشعر أن هذه السفرة ليست هدفاً، فالهدف عندي هو التقاط الصور، أريدها أن تكون ذكرى، فعلى الرغم من أن الحاضر جميل، لكنه يكون أجمل عندما يتحول إلى ذكريات.

مسكينة ليليان، فلم ترَ شيئاً سياحياً في هذه السفرة، فكل ما زرناه هو أطلال لوحدات عسكرية، وهو الأمر الذي اضطرها إلى أن ترسل لي رسالة على الموبايل تقول فيها: (نحن هنا)، فهي لم تكن تعلم أنني اتفقت مع دانيال على الذهاب إلى وادي (K·L).

تعود علاقتنا بهذا الوادي إلى عام ١٩٨١، فبعد أن نُقلَ رعيلنا إلى سرسنك، بدأتُ أشتاق إلى ليليان وأزورها في زاخو مرات عدة، مرة في المدرسة ومرة نخرج لنتمشى، وذات يوم، كنت في وحدتي في يوم استراحة، فأخبرني دانيال أن ليليان قد جاءت إلى الوحدة مدعية أنها أخته، فخرجنا نحن الثلاثة إلى أورزدي سرسنك، لكن دانيال اقترح عليّ أن آخذ ليليان لأريها حوض السباحة في الوادي القريب في حين يذهب هو إلى بار سياحي يسمح بدخول الجنود.

شكرتُ دانيال على اقتراحه، وابتسمت ليليان، وذهبنا إلى الوادي، لعبنا كثيراً، وصعدنا تلة داخل الوادي لننفرد أكثر، وهناك نمنا على العشب الذي يتخلله ورد الياسمين، وتعانقنا ونحن مضطجعان وهيمنت علينا قبلات هادئة

مازلت أشعر بها وكأنها تحدث الآن، وبعد نصف ساعة انتبهنا إلى عائلة قادمة من بعيد فقمنا من فورنا إلى الجهة الثانية من التل، وهناك قررنا أن نكتب الحرفين الأولين من اسمينا بالحجارة (K·L) فجلبنا كثيراً من الحجارات الكبيرة التي تبلغ إحداها حجم كرة سلة، وكتبنا الحرفين بارتفاع خمسة أمتار تقريباً وعرض عشرة امتار.

كنا ننظر إلى الحرفين ونحن فرحَين لأننا أنجزنا عملاً عظيماً للتذكر. رأت ليليان أن تضع صليباً كانت ترتديه كقلادة تحت إحدى الحجارات في حين وضعت خاتمي في المكان نفسه.

بدت الدهشة واضحة على وجه دانيال وهو قادم من بعيد وينظر إلى ما أنجزناه. وبمرور الزمن بدأ السكان المحليون يطلقون اسم (K·L) على الوادي، والغريب أن هذا الرمز أصبح نقطة دالة عند الاستخبارات العسكرية آنذاك.

ما إن وصلنا سرسنك ونحن عائدون من العمادية، حتى طلب منا مغديد أن نتوجه إلى (الربية)، وهي المكان الذي كان يتواجد فيه رعيله، فاستجبنا لطلبه، لكننا وجدنا بيتاً ضخماً أقيم على الربية وكأنه أحد بيوت المسؤولين أو الأغنياء الكبار، فتأمل مغديد البيت من بعيد بوجه من دون ملامح، وشيئاً فشيئاً بدأت ملامح الحزن تجتاحه، بعد ذلك سار دانيال نحو وادي (K·L) من دون أن نطلب منه ذلك، وفي الطريق روى دنيال جانب القصة الذي يعرفه حول هذه التسمية والكذبة التي كتمناها طوال هذه السنين، فقال مغديد: (ثق كنت اتصور الاستخبارات العسكرية سمته بهذا الاسم). فضحكنا وضحكت ليليان بخجل وبدأت تغني: (من عز النوم بتسرقني...) وغنينا معها إلى أن وصلنا سفوح

الوادي، ففاجأنا بأنه قد تحول إلى مدينة كبيرة بالكاد استطعنا أن نحدد المكان الذي كنا فيه، فاغرورقت عيناي بالدمع لهذا العمران الذي محا جزءاً من الذاكرة، وهزت ليليان رأسها ندماً وقالت: (لو ما جايين أحسن، هسه واحدنه شيتذكر بعد) وكادت تكفر.

{٣}

في ٢٥ ـ مايس ـ ٢٠٠٩، وصلت إلى أربيل لأقدم طلب إعفاء من أداء امتحان اللغة الكردية في الإمتحان النهائي، إذ كانت درجتي في الإمتحان التمهيدي صفراً، في حين نجحت في الدروس الأخرى بتفوق، وبعد أن تأكدت من أن قوانين الإقليم تنص على إعفاء الطلبة العرب من أداء امتحان اللغة الكردية؛ نما لدي أمل بأن أثبت للمدير العام للامتحانات في الإقليم بأني عربي ويمكن أن أعفى من هذا الإمتحان.

دخلت على مدير عام الإمتحانات في وزارة تربية الإقليم وعرضت عليه مشكلتي، فأخبرني بأني يجب أن أكون معفواً من أداء امتحان اللغة الكردية بحسب القانون.

نادى على موظف لديه ليتشاورا في الأمر فأخبره الموظف بأني مشمول بامتحان اللغة الكردية، والسبب أن القانون يعرّف الطالب الكردستاني بأنه الطالب الذي أدى آخر اختبار وزاري في كردستان، وبما أني أديت اختبار الثالث المتوسط في كردستان فأنا كردستاني.

أخبرت المدير العام بأني أديت امتحان الثالث المتوسط عام ١٩٧٩ ولم تكن وقتها كردستان بهذا الاسم، فلعل هناك ثغرة قانونية أفيد منها، فتبسم المدير العام قائلاً: (دخلنا بالسياسة). ثم قال: (لو وياك مجموعة متكونة من ألف ألفين واحد

عندهم نفس المشكلة كان صارت قضية يمكن أن أثيرها، لكن واحد، فلا يمكن أن أغير القانون علمود واحد).

بدأت استسلم شيئاً فشيئاً، ولما رأيته مرحاً يود إطالة اللقاء، حدثته حول ما حدث لي عندما قدمت على الامتحان الوزاري وذكرت له مشكلة الإقامة، ثم قارنت بين المشكلتين، فقلت له (يعني من أريد ابقى بكردستان أحتاج إقامة لأني لست كردستانياً، بينما قانون التربية يعرفني على أني طالب كردستاني). فقال بأسلوب مرح: (هذا نصيبك شتسوي)، فشكرته على حسن استقباله وخرجت إلى كراج دهوك.

قررت هذه المرة أن أغير الفندق؛ لأني سأبقى لأكثر من شهر؛ لأن أوقات الإمتحان الوزاري في الإقليم بواقع يومين في الأسبوع، وأجور فندق شيرين تعد كبيرة بالنسبة لي، فبحثت عن فندق أقل سعراً.

كنت متذبذباً حول طول مدة الإمتحان لأكثر من شهر، فمن جانب هي مدة كافية للطالب أن يراجع مادته، إذ من غير المعقول أن يدرس الطالب سنة كاملة ثم يؤدي امتحاناً مصيرياً بين يوم وآخر وهذا ما يحدث في المركز، ومن جانب آخر – وهذه القضية تخص أمثالي – أجد بقائي شهراً في الإقليم يكلفني مالاً كثيراً لا أتحمله لولا طموحي في أن أتجاوز الإعدادية.

في مدة الامتحان التمهيدي، قضيت قرابة عشرين يوماً أتحسب لكل شيء من حيث المصروفات، كنت لا أشتري الماء من الفندق، بل كنت أضع ماء

السخان الحار في قناني بلاستيكية، وأضعه في الثلاجة، وكنت أتناول الغداء والعشاء في أغلب الأيام في معطم قريب مناسب جداً، فقد أثار هذا المطعم انتباهي إلى الفرق بينه وبين مطاعم منطقتي في بابل، إذ كان المطعم نظيفاً جداً، ويقدم مع لفة الشاورما الكبيرة مع صحنين من السوب والحمص، وكل ذلك بسعر زهيد هو ألف دينار، في حين كنتُ في بابل أتناول لفة شاورما أصغر حجماً وأقل نظافة على الرصيف من دون أية مقبلات بألف دينار أيضاً.

حين اتصلت بمغديد لأسأله عن سعر الغرفة في الفندق الذي أقام فيه في الإمتحان التمهيدي أخبرني بأن المبلغ هو خمسة عشر ألفاً لليلة، فوجدت أن المبلغ مازال كبيراً بالنسبة لي؛ لذلك قررت أن أبحث عن فندق سعره مناسب ما دام هناك وقت كاف للبحث، وفي حالة عدم العثور على واحد أعود لفندق شيرين وأدفع ٢٥ الفاً لليلة واحدة ثم أعاود البحث في اليوم التالي.

عبرت الى الجهة الشمالية لشارع سوق جگاير، ودخلت فندقاً بدا لي متواضعاً لكني تفاجأت بأن سعر المبيت فيه لليلة واحدة هو ثلاثين ألف دينار، وقد برر لي موظف الاستعلامات ذلك السعر بأن موسم السياحة قد ابتدأ وأسعار المبيت في الفنادق سترتفع إلى أكثر من ذلك. عندما سمعت ما قاله شعرت بالخطر؛ فماذا لو ارتفعت الأسعار فعلاً؟ وماذا لو رفع حتى فندق شيرين سعر المبيت أيضاً؟

مشيت باتجاه المجسر الشمالي الشرقي في نهاية سوق جگاير من جهة الجنوب فرأيت يافطة كبيرة عالية كُتب عليها (فندق شيروان)، وحين دخلت

وجدت شاباً يمسح صالة الاستقبال التي بدت تبرق من كثرة المسح، فأخبرته أني أريد غرفة بسرير واحد فطلب مني أن أستريح حتى يغسل يديه.

كان وجه الشاب أحمر بكل ما تحمله كلمة أحمر من معنى وشعره أشقر، وهو يرتدي بنطلونَ جينزٍ أزرق وقميصاً أحمر، حليق الشارب واللحية، لكنه بدا حازماً، عاد بعد قليل، وجلس بهدوء على مكتبه وفتح سجلاً كبيراً ونظر إلي وسألني: (شگد راح تبقى ويانه)؟ فصمت قليلاً ثم سألته عن سعر المبيت في فندقه، عند ذلك أشار بيده اليمنى الحمراء المفتوحة الأصابع، فعرفت أن سعر المبيت لليلة واحدة هو خمسة آلاف، فلم أتمكن من إخفاء سعادتي بهذا السعر حتى أني أخبرته بشكل مباشر أني موافق وأخرجت بطاقة هويتي ووضعتها على سطح مكتبه والابتسامة تفضحني.

سحب هويتي بهدوء وأغمض عينيه قبل أن ينظر فيها ثم فتح عينيه بهدوء، وما إن نظر في الهوية حتى بدت ملامح الاضطراب على وجهه، عند ذلك وضع بطاقتي على سطح مكتبه وقال:

ـ أكو شي ضروري جداً لازم تعرفه قبل أن تسكن هنا.

= شنو هذا الشي؟ (قلت ذلك وأنا عاجز عن اكتشاف ذلك الشيء).

ـ إحنا إيزيديين وأنت مسلم.

= ياااااااااااااه، هو هذا إلي قالقك؟ كنت اتصور أكو قد قضية تستحق هذا الاضطراب.

ـ يعني هاي الحالة ما تضوجك؟

= أبداً، بل بالعكس تماماً.

بعد أن اطمأن لي سألني: (هسه كم يوم تنوي تظل ويانه)؟ فأجبته بأني أريد أن أبقى معهم ٣٥ يوماً، وما أن سمع بالمدة حتى اقترح علي أن أحجز لشهر كامل؛ لأن سعر المبيت في هذه الحالة سيكون أقل، فسألته عن السعر الجديد فأعلمني أنه أربعة آلاف لليلة، وبحسبة سريعة أخبرته أن سعر مبيت ٣٥ يوماً سيكون بـ مئة وأربعين ألفاً، فقال مباشرة: (الك ١٢٥).

حل وقت عشاء العمال، فوضعوا صينية كبيرة في وسط صالة الاستقبال وبدأ الشباب الحمر القادمون من أجواء الأربعاء الأحمر يتقاطرون على الصينية، كنت أنظر إليهم وأنا أتذكر حفلة الأربعاء الأحمر التي شاركت فيها في فندق شيرين قبل شهرين، فتخيلت الله وهو يُجري الدم في جسد آدام، فتهيأ لي أن (لاسو) هو ذاته آدام، في حين كان (لاسو) في حيرة من أمره، أيدعوني للعشاء أم لا؟ ولكي أحسم هذا الموضوع قلت له مازحاً: (شنو مَ راح تدعيني على العشا) فضحك من كل قلبه وقام من مكتبه وسحبني من يدي وعرّفني على زملائه فرحبوا بي كثيراً وتعشينا وأنا في غاية السعادة.

كانت غرفتي في فندق شيروان بسيطة لكنها مريحة، فعلى الرغم من أن الحمام خارجي مشترك، إلا أني أشعر بأني سأكون مرتاحاً هنا، فما إن وضبت كتبي على المنضدة الصغيرة الموضوعة إلى جانب السرير، ووضعت ثيابي في الجزء السفلي

من تلك المنضدة، سمعت طرقاً على باب الغرفة، فأذنت للطارق بالدخول فإذا هو (لاسو) يحمل قدحاً من الشاي وهو مبتسم، فشكرته مع ابتسامة قد تكافئ ابتسامته.

مسكت كتاب اللغة الكردية وألقيت عليه نظرة، فقد شغلني هذا الكتاب في المدة بين نهاية الامتحان التمهيدي إلى اليوم، إذ قرأت كثيراً عن قواعد اللغة الكردية، وسألت أصدقاء كرداً على الفيس بوك، وعرفت بعض القواعد وشيئاً من الأدب وتاريخ الأدب الكردي، وقليلاً من البلاغة، إذ خصّصت له هذه المدة وأهملت المواد الأخرى، وهو الأمر الذي جعلني أشعر أني أسيطر على الكتاب بنسبة لا تتجاوز العشرين بالمئة، وهي ليست كافية بالتأكيد، لكني سأمتحن لأفحص هذه المعلومات على أمل أن أسيطر على الكتاب في الدور الثاني.

في صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ مايس ٢٠٠٩ اتصل بي زميلي (نارڤين) وأخبرني أن صديقاً له اسمه (روهان) سيزورني في الفندق، ثم ذكر لي أن (روهان) شاب في الثلاثين يعرف العربية والكردية بشكل جيد، وأن نارڤين حكى له عني وعن مساعدتي له، فقرر روهان أن يساعدني في مادة اللغة الكردية خلال الأيام التالية، أخبرت نارڤين بأني غيرت الفندق، وشكرته على هذا الاهتمام وقلت في نفسي، (أخيراً سيكون لنارڤين أثراً في حياتي).

قبل الظهيرة بقليل، أخبرني (لاسو) أن رجلاً جاء ليزورني ويرغب بدخول غرفتي، فأذنت له، فدخل علي شاب طويل القامة فاتح اللون، مشّط شعره بطريقة بدا لي معها أنه قادم من سبعينيات القرن العشرين، لكن زلفه ليس طويلاً إلى ذلك

الحد، كان يشبه إلى حد ما الشاعر الكردي (يونس رؤوف)، إلا أن أذني روهان كانتا صغيرتين.

نظر إلي وهو يردد أغنية (ياجمالك سومري، ونظرات عينك بابلية)، فقلت له:

ـ هاي آني ؟ لعد أنت شيغنولك؟

= آني (روهان) صديق نارفين لي خبرك عني.

فحورت الأغنية بإيقاع مرتبك، ورددت مترنماً: (ياجمالك بادناني، ونظرات عينك سورانية)، وقد لفظت كلمة سورانية بطريقة جعلت البيت مقبولاً، فابتسم وطلب مني أن نخرج لكي نتغدى في مطعم قريب.

في الطريق إلى المطعم عرفت أن اسمه الحقيقي ليس روهان، لكنه لا يحب الأسماء العربية التي يتسمى بها الكرد حصراً، لهذا غير اسمه بطريقة غير رسمية، وعرفت أنه قد نجح في الإمتحان التمهيدي وقد كان يمتحن في مدرسة غير مدرستنا.

أخبرني روهان أن نبدأ القراءة من مساء اليوم؛ إذ سيأتيني إلى الفندق بعد العشاء، فبدا لي أنه متحمس أكثر مني لكي يوصل لي قواعد اللغة الكردية، لأنه كما يدعي ضعيف بالأدب والبلاغة، فأخبرته أن ذلك كاف جداً، ولاسيما إني كنت أفكر أن أترك امتحان اللغة الكردية للدور الثاني، ولكن أحببت الفكرة وقررت أن تكون هذه الأيام الخمسة الباقية على الامتحان النهائي مخصصة للغة

الكردية بالنظر لأني مسيطر على جميع المواد الأخرى، وهذا يمنحني فرصة السيطرة على مادة اللغة الكردية إذاما قرأتها في العطلة الصيفية.

بعد الغداء تمشينا نحو مقهى شعبي في أحد أزقة سوق جگاير لتناول قدحين من الشاي، وهناك أخذ يحبب لي هذا المقهى؛ لأنه لا يسمح بلعب الدومينو والطاولي بسبب الأصوات التي تصدر عند ممارسة هاتين اللعبتين، في الوقت الذي كنت أشاهد الزبائن وهم يمارسون لعبة الشطرنج وكأن المقهى مخصص لهذه اللعبة، فسألته فيما إذا أحب هذه المقهى بسبب جودة الشاي أم موقعها أم زبائنها أم صاحبها أم لأنه يحب الشطرنج؟ فقال مبتسماً: (ماكو ترك؟ تگدر تگول كل هذه الأشياء.

بعد أن أخذت رشفة من الشاي، سألته عن (بيمان جمال) الفتاة الكردية التي كانت تتصدر بطولات النساء في العراق في مسابقات الشطرنج في السبعينيات والثمانينيات، فأجاب بأنها من دهوك واسمها الحقيقي (بيمان كمال)، لكن عمها جمال هو الذي علمها الشطرنج لذلك انتسبتْ له، ثم وعدني أن يعرفني على عمها (جمال) لاحقاً.

بعد أن تناولنا الشاي والأحاديث العابرة، اقترح أن نقوم الآن ونلتقي بعد العشاء، وسألني فيما إذا استطيع العودة إلى الفندق فقلت له: (راح أحاول أتلمس طريقي).

اتصل بي روهان بعد العشاء ليعلمني بأنه قادم فهيأت نفسي للقراءة، وما هي إلا دقائق حتى جاء وهو محمل بملازم ملونة، بعضها مرتب وبعضها ممزق فوضعها على المنضدة وقال:

ـ انت تدري أصحاب الفندق ايزيديين؟

= نعم أدري، أخبرني لاسو ذلك قبل أن أسكن.

ـ يعني إنت ما تتنكس منهم.

= لا، أبداً، بل بالعكس، أجدهم بشراً مثلي.

ـ غريب، لعد ليش المسلمين يضوجون منهم ويعتبروهم نكسين؟

= القضية تتعلق بالوعي الجمعي، فالشباب المسلمين مساكين لا يستطيعون مقاومة الرواية المغرضة عن الآخر المختلف.

شعر روهان بأن النقاش بدأ يتطور، وأنه سيجرنا إلى موضوعات أخرى، فقال: (على كلٍّ، خل نقرا؛ لأن ما ظل شي على الإمتحان).

كانت طريقته في إيصال المادة منظمة ودقيقة ومبسطة، إذ تمكنت أن أفهم من القواعد في ساعتين ما لم أتمكن منه خلال ٤٠ يوماً، فشكرته، واتفقنا أن نلتقي يوم غد باكراً جداً لكي يكون عندنا وقت للقراءة واللغوة بحسب قوله، لذلك اقترح علي أن أنام باكراً لأنه سيأتيني في الخامسة صباحاً يوم غد الأربعاء ٢٧ مايس ٢٠٠٩.

على الرغم من روعة الصباح في دهوك، إلا أني شعرت بأن الجو بارد في حين كان روهان يرتدي قميصاً بنصف كم.

لاحظت أن روهان يحب المشي كثيراً، إذ راجعنا مادة يوم أمس ونحن نتمشى إلى أن وصلنا ملعب نادي دهوك، فاقترح أن نجد مكاناً في الملعب لنقرأ، وفي فترات الإستراحة نشاهد لاعبي نادي دهوك وهم يتدربون في هذا الصباح الرائع.

جلسنا على مصطبة، وبدأنا ندرس الإشتقاق في اللغة الكردية، وبعد ساعة من التوضيحات والأمثلة وجدت أن هناك تشابهاً كبيراً بين اللغة الكردية واللغة العربية من جانب المصدر الذي تشتق منه الكلمات، عندها أيقنت أن اللغويين العرب لم ينتبهوا إلى هذه الطريقة في تحليل المصدر، إذ لو انتبهوا لوجدوا حلولاً لمشاكل كثيرة ما زالت عالقة، ولأقروا بأن المصدر اسم بلا منازع، ووجدت أن طريقة الكتابة الكردية التي تسقط الأصوات على السطر هي من أوحت للغويين الكرد بهذا النوع من الإشتقاق.

فهمت الاشتقاق في ساعة واحدة، وقد شعر روهان أني فهمت، فاقترح أن نأخذ استراحة للفطور الصباحي؛ لذلك خرجنا من الملعب وروهان يخيّرني بما نتناوله للفطور، فقلت له مباشرة (گيمر ومربى وصمون حار وچاي). فقال وهو يكاد يضحك: (گيمر عرب)؟ فهززت رأسي بالإيجاب فقال: (راح أوديك لمكان واشوفك گيمر العرب الحقيقي)، قال ذلك وهو يضم أصابع يده اليمنى بشدة ويهز يده حتى أيقنت أنني ذاهب إلى المعدان الكرد.

أخبرني أنه يحب هذا النوع من الفطور، ولو لم اقترحه أنا لاقترحه هو، لذلك اقترح قانوناً، وهو أن يكون الفطور هكذا يومياً فوافقت مباشرة وأنا أوضح له علاقة هذا النوع من الفطور بالتجديد على كافة الأصعدة.

بقينا في المطعم بعد الفطور، لنأخذ قدحين إضافيين من الشاي، فسألني روهان عن الأوضاع في بغداد، فأوضحت له أننا مررنا بسنتين عصيبتين كريهتين، لكن الوضع بدأ بالتحسن التدريجي الآن بعد أن أحكم المالكي قبضته على السلطة.

ما إن أنهيت كلامي حتى تأفف روهان لاعناً الحرب الأهلية وما يأتي من ورائها، ثم واساني على ما حدث ذاكراً المأساة التي حلّت بالكرد في تسعينيات القرن العشرين عند قيام الحرب الأهلية بين الحزبين الرئيسين في الإقليم.

على الرغم من أنه كان يروي تفصيل الأحداث، إلا أني شعرت بخجله من استعانة الحزب الديموقراطي الكردستاني بالحكومة المركزية وبصدام حسين تحديداً، مدعياً أن ذلك كان خطأ كبيراً ووصمة عار على الكرد جميعهم، لكني ذكرته باستعانة جلال الطلباني بإيران، ووبررت سلوك البرزاني بأنه ردة فعل لاجتياح القوات الإيرانية العراق بعد دخولهم السليمانية والقتال مع الطلباني، وأن الوضع في العراق وظروف المعركة كانت أكبر من أن تختصر بهذه الإستعانة.

حينما كان روهان يتحدث، انتابني شعور بأنه سوراني، أو من الحزب الوطني الكردستاني، أو بشكل أوضح أنه من جماعة طلباني، لكنه يسكن دهوك التابعة للبرزانيين.

كنت أرجو أن يكون شعوري هذا خطأً، لأني لا أحب الإنتماء إلى أية جهة حتى لو كانت قادمة من السماء، وهو الأمر الذي جعلني أوشك أن أسأله، لكني أثبت نفسي على هذه المحاولة.

قال لي: (إذا كان عدكم القتل على الهوية، فعدنا القتل على اللون، صرنا لونين: أحمر وأصفر. تشردنا في الجبال لمرات عديدة، أحياناً بسبب الدول المحيطة بنا، وأحيانا بسببنا نحن)، وحين سألته ألِى هذا الحد وصلت الحرب الأهلية هنا؟ أجابني بأنها حرب قديمة من أيام الدولتين البادينانية التاريخية والسورانية التي تعد حديثة، وهنا أباح لي بانتمائه، ولكن بأسلوب هادئ يبتعد عن العصبية القومية، وذلك حينما أخبرني أنه يعاني مثلي من فهم مادة اللغة الكردية، وأنه دخل دورة لدراستها استمرت ثلاثة أشهر؛ لأنه لا يفهم هذا الكتاب، لأنه مكتوب باللغة البادينانية، وأن هناك اختلافاً كبيراً بين لغته الأصلية وهذه اللغة، فعرفت من ذلك أنه سوراني. لكن انتماءه الأكبر إلى الكرد ثم إلى العالم. أحسست بوجود نزعة أممية لدى روهان، لكن هذه النزعة تتلاشى عند الحديث عن القومية الكردية.

بعد أن خرجنا من المطعم اقترح علي أن نكمل درس اليوم في بيته، فهو لديه غرفة خاصة معدة للدراسة، وحذرني من أن أرفض.

أخبرني أنه سيعمل لي قهوة عربية بيديه اللتين وصفهما بالكريمتين ساخراً، فانتهزت هذه الفرصة لألقي نظرة على مكتبته الخاصة، وقد عرفت عن طريق كتبه أنه مهتم بتاريخ الكرد، إذ اقتنى أغلب الكتب التاريخية التي تروي تاريخ الإمارات الكردية من مثل: كتاب (شرفنامة) لشرف خان البدليسي، وكتب المؤرخ الكردي (حسين حزني)، وكتاب (خلاصة تاريخ الكورد وكوردستان) للمؤرخ الكردي محمد أمين زركي.

روى لي بحزن شديد ما تناقلته هذه الكتب من مظلومية للشعب الكردي عبر التاريخ، من هجوم العثمانيين والصفويين على إمارة بادينان في منتصف القرن التاسع عشر، إلى سقوط إمارة سوران على يد العثمانيين وضمها إلى ولاية الموصل، وسقوط دولة مهاباد في إيران بعد أقل من سنة بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن الذي يحزنه أكثر هو أن الكرد يتقاتلون فيما بينهم، فعلى الرغم من صمود بادينان أمام العثمانيين والصفويين، الا أنهم انهاروا وسقطت إمارتهم التي دامت لخمسة قرون على يد أخوانهم السورانيين، وهنا ضرب روهان صدره بكفه وهو يلفظ كلمة (السورانيين).

تحول هذا العداء القديم بين الإمارات الكردية إلى صراع مستمر بين القادة الكورد، فالبادينانيون صار يمثلهم (الحزب الديموقراطي الكردستاني) الذي يسيطر على أربيل ودهوك، بقيادة العائلة البرازانية، والسورانيون صار يمثلهم (الاتحاد الوطني الكردستاني) الذي يسيطر على السليمانية بقيادة العائلة الطلبانية.

بعد أن جاش روهان بأحزانه، قال وهو غاضب: (يعني إحنة وحد ماعدنه دولة ونبقى مقسمين)؟ وعلى الرغم من أن الموقف لم يكن يستوعب النقاش المنطقي، لأنه كان عاطفياً، إلا أنني أخبرته بأنه ليس من الضروري أن يكون للقوميات دول، فكثير من القوميات في العالم تعيش ضمن دول بسلام، هذا من جانب، ومن جانب آخر ليس كل شعب خضع للتقسيم ينبغي أن يتوحد، ففكرة الوحدة العربية التي نادى بها القوميون العرب أصبحت اليوم من العهد البائد، وأظن أن الكرد اليوم يمرون في مرحلة المد القومي الذي مر به العرب في النصف الثاني من القرن العشرين.

صمت روهان قليلاً، ثم بدأ يتحدث بصوت حاد، فأخبرني أن العرب حينما قسمهم الاستعمار حوّلهم إلى دول، أما الكرد فكانوا أجزاء لبعض تلك الدول، وهذا أمر مختلف.

ابتسمت ابتسامة بدت له أنها ساخرة، فتساءل عن سبب ابتسامتي فذكّرته بأحد آرائه حول الدول العربية، إذ أخبرني يوم أمس بأن العرب محظوظون، لأنهم أكثر من عشرين دولة، فلديهم أكثر من ألف قناة فضائية تبث ثقافات مختلفة على الرغم من أنها عربية، والباحث العربي لا يحتاج إلى ترجمة الكتب؛ فهناك ملايين المصادر المكتوبة بالعربية، وهنا سألته : (إليس التقسيم مفيداً بحسب رأيك السابق)، فأجاب بحزم (لا لتقسيم الكورد).

شعرتُ أن الموضوع عاطفي أكثر منه معرفي أو اقتصادي، فقد غلبت عليه النزعة القومية، فرأيت أن أغير الموضوع لحين ما يعود لأهميته، لكنه استدرك

وأخبرني أنه يقدم القومية على الدين، ويعد تدخل الدين أحد أسباب انهيار إمارة سوران؛ فلولا فتوى (الملا محمد خطي) لم تسقط إمارة سوران بيد العثمانيين، إذ أفتى الملا بأن من يحارب جيش الخليفة العثماني كافر وزوجه طالق.

بدأ روهان يتحدث حول تبعية الكرد الإجتماعية لا السياسية، إذ يرى أن تبعية الكرد البسطاء الذين تشكلَ وعيهم الجمعي في بلاد شتى، هي تبعية واحدة جاءت من تأثير الإسلام، فالإسلام هو دين الدول التي تضم عدداً كبيراً من الكرد وهي إيران وتركيا وسوريا والعراق، وهذا كان مبرراً لكرهه للإسلام بحسب رأيه، وهو يبرر تركيزه على القومية الكردية بأنه طريقة لتخفيف حدة تأثير الدين.

كنت استمع لكلامه وكأني أقرأ لإنطوان سعادة الذي أسس لهذه الأفكار، فأخبرت روهان أن انطوان سعادة ذهب إلى أبعد من ذلك حين حاول إبراز التاريخ الوطني على حساب الدين والقومية، فطلب من المثقفين السوريين إبراز أمجاد الفينقيين وهو الأمر الذي أدى إلى تأثر المثقفين العراقيين فأبرزوا أمجاد السومريين والبابليين والأشوريين متأثرين بأفكار سعادة التي هي بدورها متأثر بالتيار الكلاسيكي الأوربي الذي تخلص من التاريخ القريب باللجوء إلى الحضارة اليونانية والرومانية.

بعد أن بردت قهوتنا، أعدّ لنا روهان غيرها، وبدأنا ندرس الأزمان في اللغة الكردية التي وجدتها تقترب كثيراً من الأزمان في اللغة الإنكليزية، فهي أكثر تفصيلاً من أزمان اللغة العربية، وانتبهت إلى أثر أدوات الزمن المضارع البسيط في

اللغة الكردية على بعض اللهجات العربية، فحرف (الباء) بوصفه إداة لهذا الزمن مستعمل في اللهجة المصرية في قولهم (بحبك) وهو بالضبط ما وجدته في أصل قواعد هذا الزمن في اللغة الكردية.

كان روهان يستمتع عندما أعقد مقارنات بين اللغات، فهو يتمكن من عقد موازنات بين البادينانية والسورانية فقط، وذلك في مواضع قليلة، ويجد في مقارناتي فائدة بحسب قوله، فكثيراً ما يخبرني بأني سأكون أفضل منه في القواعد؛ لأني أقارن بين لغات كثيرة منها العربية والإنكليزية والروسية وشيء من الفرنسية، لكني كنت أعدّ ما يقوله مجاملة؛ فهو الذي يدرسني لغته.

في المساء جاءني دانيال، وذهبنا إلى إحدى كازينوات گلي دهوك، وبعد أن حكيت له عما حدث في اليومين السابقين، وجدته حذراً من أن يتعرف على روهان.

انتابني شعور أن دانيال يحذر العلاقات مع الآخرين، فهو لم يعد كما كان في شبابه، فعلى الرغم من أنه يعيش حياته ببساطة ومرح، إلا أنه قليل العلاقات في الوقت الحاضر، إذ طلب مني أن لا أخبر أحداً بأننا كنا في الجيش والأسر معاً.

اقترح على دانيال أن نأخذ ست علب بيرة، ففضلت أن نشربها على طريق زاويته، فوافق، وأخبرته أني كنت أشتاق كثيراً لذلك الطريق.

بدأ دانيال يسير بسيارته ببطء، وبدت عليه شكوى من شيء ما، يرى دانيال أن حكم دهوك من قبل حكومة الإقليم ليس ديموقراطياً، وإنه يفضل لو

خضعت لبغداد مباشرة، وما إن سمعت قوله حتى حاولت تغيير رأيه حول الموضوع، فأخبرته أن حكومة بغداد أسوأ حكومات العالم، والوضع في العراق يحتاج إلى الحزم، يحتاج إلى ديموقراطية مشروطة يحميها قانون صارم.

بعد أن أنهينا علب البيرة، توقفنا في زاويته لنأخذ أربع علب إضافية للعودة، فاقترحت عليه أن لا يشرب كثيراً؛ لأنه يقود سيارته في طرق متعرجة، ثم أني خشيت عليه من شرطة المرور، فأخبرني وهو يضحك بأن شرطة المرور لا تحاسب السائق السكران إلا إذا ارتكب خطأ مرورياً، فالقانون هنا يعامل السكران معاملة الصاحي في حالات المخالفات المرورية وغيرها، وحذرني من أن أرمي العلبة الفارغة في الشارع؛ لأن سيارة الشرطة ستتبعنا إلى دهوك، وقبل أن نصل البيت، يفاجئونا ويأمروننا بالعودة إلى زاويته لرفع العلبة الفارغة من الأرض ووضعها في سلة المهملات. وهنا قلت له: (ها!! شبي هذا القانون؟ أتمنى أن يطبق في بغداد).

بعد أن وصلنا إلى دهوك في الساعة العاشرة ليلاً ،اتفقنا على أن نلتقي بعد العشاء ساعتين يومياً، لأني أقرأ مع روهان في النهار، فألح علي أن أتصل به لأي طارئ ولو كان بسيطاً.

كنت أستعد للنوم قبل منتصف الليل بقليل، وما إن غفوت، حتى سمعت إطلاق نار كثيفاً، كان صوت الرصاص يأتي من أماكن مختلفة، حقيقة أربكني ذلك إذ لم أسمع صوت رصاصة واحدة طوال مكوثي في دهوك في السفرتين السابقتين، فما الذي يجري؟

اتصلت بروهان لأستفسر عما يجري ومازالت أصوات الرصاص مستمرة، فأخبرني أنه سيستفسر عن الأمر ويتصل بي.

أغلقت الهاتف واتصلت بدانيال فأخبرني أنه في المستشفى لأن (عمو بابا) مات هذه اللحظة في مستشفى دهوك، والرصاص الذي يُطلق الآن هو إعلان لموته.

بعد قليل اتصل بي روهان فأخبرني أن المديرية العامة لتربية دهوك ألغت امتحان اللغة الكردية، والطلاب محتفلون بذلك، فعرفت أنه يمزح، ثم ذكر لي السبب الحقيقي، أخبرت لاسو بسبب إطلاق النار فبدت عليه الحيرة من أمر ما، لكنه قال بعد صمت: (ولد يوم ٢٧ ومات يوم ٢٧).

في الخامسة من صباح يوم الخميس ٢٨ ـ مايس جاءني روهان إلى الفندق، فاقترحت عليه أن ندرس ساعتين في غرفتي؛ لأن الجو بارد في الخارج بالنسبة لي، وفي الساعة الثامنة اقترحت عليه أن نتناول الفطور في غرفتي فوافق، فسألته إن كان يوافق على أن يأكل من يد الأيزيديين فأجاب بالإيجاب مباشرة وبلا تردد، ثم عاتبني على ظني به سوءاً.

بعد قليل أنقذني لاسو من العتاب حين استأذن وهو يحمل بين يديه صينية الفطور الصباحي، وأخبرني أنه أعدها بنفسه، فطلبنا منه أن يفطر معنا فجلس بلا تردد، وبدأنا نتناول الفطور ونتحدث في مواضيع شتى، ولما علم لاسو بأننا ندرس اللغة الكردية تحدث عن دراسته للغة الروسية في موسكو، وبدأ بعقد

مقارنات بين اللغة الكردية والروسية، وهو الأمر الذي جعل من فطورنا الصباحي محاضرة في اللغتين.

بعد الفطور استأذن لاسو ليسمح لنا أن نكمل محاضراتنا، وعندما كنت أقف مع لاسو في باب الغرفة، رأيت روهان يقلب بكتبي التي أتيت بها من بابل، فوقعت يده على كتاب اللغة الكردية، فأشار لي من بعيد: (هذا شنو)؟ فأخبرته أنه كتاب منهجي مخصص للصف الرابع الإعدادي في المركز، وما إن أكملت عبارتي حتى بدا الإندهاش واضحاً على وجهه، فسألني بانبهار: (يعني أنتو تدرسون اللغة الكردية)؟ لم يكن روهان ينتظر إجابة مني، فأخذ يردد بفخر: (هاي خوش شغلة، هاي خوش شغلة)، وهنا أخبرته أننا – على مستوى الناس – نحب الكرد، وقد تعمدت أن أقول: (الكرد)، لأني رأيته ينزعج عندما أقول: (أكراد)، علماً أن هذا النوع من الجمع لهذه الكلمة حصراً لا يحمل إية إساءة بحسب ثقافتنا نحن العراقيين العرب. قلت له بصراحة أننا بشكل عام أو أغلب العراقيين العرب يتعاطفون مع القضية الكردية، لكنهم بدأوا يتذمرون الآن؛ لأن بعض قادتكم فعلوا ما عجزت كل الحكومات العراقية عن فعله، وهو خلق فجوة شعبية بين الكرد والعرب، إذ كانت الفجوة مقصورة على القادة فقط، في حين بدأت تتسع الآن لتصل إلى الناس البسطاء، حتى على مستوى البسطاء هي مازالت مقصورة على تلك الطبقة التي تؤيد كل حاكم، تلك الجماهير التي تمتلك استعداداً للغضب الذي ينمو إلى أن يتحول إلى إرهاب، إذ تميزت هذه الطبقة بقلة الوعي، فهي لديها استعداد تراكمي لتنطلي عليها الخديعة المؤطرة بالدين والمذهب والفكر القومي، وهناك من يحاول الاستمرار بتغيير الوعي.

بدأت أقلب دفاتري لأنذر بيده الدراسة وأنا أردد النشيد القومي الكردي:

ئه ی ره قیب هه ر ماوه قه ومی کورد زمـان
نایشــکێنێ دانه یی تـۆپی زه مـــــان
که س نه ڵێ کورد مردووه، کورد زیندووه
زیندووه قه ت نانه وێ ئاڵاکــه مـــــان

كان روهان مندهشاً وعيناه محدقتان بي، فأخبرته أني حفظته من صديقي آزاد في بداية الثمانينيات عندما كان ممنوعاً، وأخبرته كذلك أني أحببت شعر دلدار مؤلف هذا النشيد في مطلع الأربعينيات، فقد ذكر لي آزاد أن هذا النشيد كان قصيدة قومية، لكن الكرد في الجهات الأربعة تبنوها بعد أن رددها الناس لأول مرة في مدينة مهاباد اثناء إعلان جمهورية كوردستان الديمقراطية في إيران يوم ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٦ من قبل القاضي محمد رئيس تلك الجمهورية التي انهارت بعد أقل من سنة.

وللدعابة قلت لروهان: (أني حفظت هذا النشيد من جنت إنت بالكاروك)، فضحكنا نحن الاثنين، فأخبرته أمراً آخر جعله يقطع ضحكته، وهو أني لم أعد أردد النشيد بذات الحماس السابق، لكنه لم يسألني لماذا، إذ كان يعرف أن التعاطف مع القضية الكردية من قبل العرب أصبح ضعيفاً الآن لأن القضية تحولت إلى سياسة وليست نضالاً.

حين باشرنا الدراسة، وجدت أن روهان حريص على توصيل المعلومة بشكل كامل، لكني لم أكن استوعب بشكل كامل بسبب رؤيتي المنطقية

للموضوع، فمن غير المعقول أن أتعلم لغة من اللغات في خمسة أيام، فضلاً عن أن العربي يرسب في اللغة العربية أحياناً وكذلك الكردي، فهو يرسب في اللغة الكردية أحياناً، فكيف لي أن أتوقع النجاح في لغة أدرسها في خمسة أيام، لكني لم أخبر روهان برؤيتي هذه لئلا أثبط من عزمه في إلقاء المحاضرات، ومع ذلك كنت أنتبه جيداً، فقد أحببت اللغة الكردية ونويت أن أتعلمها.

قبل العشاء اتصل بي دانيال، وطلب مني أن لا أتعشى، لأن أمه عملت لنا عشاء أنا ولاسو، وما هي إلا دقائق حتى دخلا علي هو ولاسو يحملان صينية كبيرة فيها ما لذ وطاب، وبعد أن تعشينا، جاء أحد عمال الفندق يحمل صينية شاي وهو يردد: (هذا چاي عراقي يلوگ هلوجوه)، فابتسمنا له وشكرناه، فتناولنا الشاي واستأذنا من لاسو وخرجنا للنزهة.

في يوم الجمعة ٢٩ ـ مايس، اقترح علي روهان مكاناً آخر نقرأ فيه دروسنا، فذهبنا إلى مكان غاية في الجمال، وهو نهر (هشكه رو) الذي يعد أحد النهرين اللذين يمران في دهوك، فالأول هو (نهر دهوك) الذي ينبع من سد دهوك، والثاني هو هذا النهر الموسمي الذي يجف في فصل الصيف، كان نهر (هشكه رو) بعرض عشرين متراً تقريباً يجري فيه ماء قليل في وسطه بعرض متر واحد، وقد رُصفت أرضية النهر ببلاطات سميكة غاية في الدقة والتنظيم والجمال، وعلى جانبي الساقية الوسطية مصاطب للجلوس مغطاة بسقوف جميلة ترفعها أعمدة أربعة، وكل مصطبتين هناك منضدة ثابتة، أما ضفتا النهر، فكانتا مبنيتين من الحجارة

الكبيرة بطريقة هندسية مدروسة، وقد نبت بين الحجارات أنواع من الزهور الطبيعية والأعشاب الخضراء الغامقة.

جلسنا على مصطبتين، ووضعنا كتبنا على المنضدة، وبدأت أشعر أن القراءة في هذا المكان لا بد أن تثمر عن فهم للمادة المقروءة.

بعد ساعة من القراءة مرّ من جانبنا شاب يحمل بيديه ترمز شاي، فأخذنا منه قدحين، وأخذنا استراحة قصيرة. كانت استراحتنا ليست بهذا المعنى المعروف، فالاستراحة عندنا تعني أننا سنخوض في موضوعات جانبية أغلبها سياسية واجتماعية.

تذكرنا صديقنا نارڤين الذي كان سبباً في تعارفنا، فبدا لي أن هناك خلافاً دفيناً بين صديقيّ لا أعرف أسبابه، فغالباً ما أشعر أن روهان لا يستسيغ نارڤين كثيراً، وأنه على خلاف خفي معه، لكنني وقفت على أعتاب ذلك الخلاف عندما أخبرني روهان أن نارڤين يفهم كتاب اللغة الكردية أكثر منه، فقلت في نفسي (إذا كان نارڤين كذلك فلماذا لم يدرسني هو اللغة الكردية ولمَ اقترح عليّ أن أتعلمها من روهان)، وفي هذه اللحظات نظر إليّ روهان وقال: (اعرف بيك شجاي تفكر. نارڤين لا يعرف العربية جيداً، لذلك لا يستطيع إيصال اللغة الكردية لك). عندها عرفت أني مكشوف وأني لا أستطيع أن أخفي شيئاً.

أخبرني روهان أن الكتاب مكتوب بلغة نارڤين، فعرفت أن نارڤين باديناني، وأن الخلاف بين الإمارتين امتد لهذين الشابين الجميلين، وأنه لا ينتهي بسهولة، إلا إذا تخلصنا من التاريخ بما يحمل من إيجابيات قليلة وسلبيات كثيرة.

يبدو أن التاريخ يلاحقنا ليسقط علينا مشاكله، وأنَّ هناك من يُثير تلك المشاكل ويُظهرها للعيان لأغراض دنيئة، فوراء التاريخ مؤسسات تحاول الحفاظ عليه وتستدعيه عند الحاجة ليصبح أكثر قوة من الطبيعة الإنسانية التي تجنح للتآخي في الحاضر، وإلا ماذا يعني أن يختلف شابان على قضية من هذا النوع؟ وماذا يعني أن يتقاتل الشعب العراقي فيما بينه في ٢٠٠٦ على أثر مسائل غاية في الدناءة والإنحطاط؟ يتقاتلون على أمر لا يفهمه أغلب المتقاتلين، يموتون من أجل قائد مرحلي انتهازي يستغل قلة وعي البسطاء ويُنمي العنف المتأصل لكي يفوز بمنصب أو مكانة أو مال.

كان روهان يرد على اتصال هاتفي وهو غاضب، بعد هذا الاتصال عرفت أن روهان يعمل في جامعة دهوك، من موقع إداري، لأنه قال بعد الإتصال مباشرة: (يتوسلون حتى يحصلون على تعيين وبعدين يريدون ما يداومون، ويومية طالبين إجازة)، وحين سألته من هم أخبرني، أنهم الأساتذة العرب في جامعة دهوك.

على الرغم من أن روهان يعشق قوميته إلا أنه لاينوي التخصص في اللغة الكردية، فهو ينوي أن يتخصص باللغة الإنكليزية حينما يُقبل في الكلية البريطانية، علماً أن القبول في هذه الكلية يتطلب درجة في اللغة الإنكليزية تتجاوز التسعين،

وعلى الرغم من طموحه هذا الذي يدعوه لأن يهتم الآن بمادة الانكليزي إلا أنه يقضي جل وقته يدرسني اللغة الكردية، وهذا الموقف يدعوني دائماً إلى أن أكرر شكري له وهو يردد دائماً: (هاي شبيك؟ آني شمسوي؟).

قبل أن ننهي درسنا، اعتذر مني روهان على عدم الحضور يوم غد لوجود مناسبة خاصة في بيتهم لم يذكرلي ما هي.

شعرت أن عدم حضور روهان يوم غد سيمنحني فرصة للمراجعة، والنظر في موضوعات الأدب، لكني طلبت منه أن يترجم لي خلال يوم السبت ليلاً تعبيراً كتبته بطريقة جعلته يصلح لكل موضوع، وتركت فيه فراغات أضع فيها عنوان التعبير الذي سيأتينا في الامتحان، فقرأ التعبير وأعجبه، وقال باندهاش: (هاي خوش سالفة، راح اترجمه بطريقة مبسطة وأضع فيه بدائل عربية مستعملة في اللغة الكردية لكي يسهل عليك)، فاتفقنا على أن يسلمني ترجمة التعبير صبيحة يوم الأحد لكي اتمكن من حفظه.

قضيت صبيحة يوم السبت أقرأ الموضوعات البلاغية في البلاغة الكردية، فلاحظت أن الموضوعات ذاتها في اللغة العربية وقد ركزتُ على قضايا الجناس لأنها قضايا شكلية يمكن ملاحظتها بالعين، وركزت على الطباق أيضاً؛ لوجود مفردات قليلة يمكن حفظها، أما في موضوع تاريخ الأدب فوجدت أن تاريخ الكتاب اختص بالأدب الكردي الحديث، وهو في حدود القرن العشرين وقد اتبع مؤرخو الأدب الكردي طريقة أرخنة تاريخ الشعر الحر بالإعتماد على محطات تاريخية أدت إلى تحول سياسي أو اجتماعي في مناطق الكرد الأربعة، أعني

كردستان الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، فوجدت أنّ حفظ هذه التواريخ وبعض الأسطر التي تعرّف بالحدث ممكنة.

في عصر يوم السبت بدأت أطمع بأني سأحصل على ٣٠ من مئة في مادة اللغة الكردية، معنى ذلك أني قد أنجح في امتحان الدور الثاني لهذا العام ٢٠٠٩، وبناء على تلك المعطيات اتصلت بدانيال لنحتفل مساء هذا اليوم، فوجدت تشجيعاً كبيراً من دانيال، فهو دائماً ما يذكرني بمقولة قديمة وهي: (فاز باللذات من كان جسور)، كان دانيال يردد هذه العبارة بمناسبة أو من دون مناسبة، وتعود علاقته بهذه المقولة حين سمعها مني أول مرة عام ١٩٨١ عندما كنا في ديريلوك، وهي منطقة نادراً ما يكون لنا واجب عسكري فيها، فهي أبعد من العمادية بقليل، وما إن اقتربنا منها حتى هبطت طائرة هيلوكوبتر في مطار ديريلوك الصغير، ونزل من الطائرة نقيب طيار ظهر أنه صديق لآمر رعيلنا، وبعد أن تغدينا معاً، اقترح الطيار أن نذهب معه لإيصال مؤونة إلى رَبيّة على قمة جبل لا طريق برياً يؤدي إليها، فلا تستطيع السيارات الوصول إليها ولا حتى البغال، فقال آمر رعيلنا: (من يذهب معي)؟ فأجبته مباشرة و من دون تردد: (أنا)، فاستجاب لي وصعدنا الطائرة، وأنا أردد : (فاز باللذات من كان جسور)، وكانت تلك الرحلة التجربة الأولى لي في صعود طائرة هيليكوبتر.

كنت أقف على قلمي قرب الطيار وهو يحلق على ارتفاع شاهق حتى بدت البيوت وكأنها علب كبريت، كان الطيار يطير بأقصى من يمكنه من الإرتفاع ليأمن رصاص الرشاشات الخفيفة، وعندما وصلنا إلى الربية، لم تتمكن الطائرة

من الهبوط، إذ كان الثلج على القمة مرتفعاً جداً، فهبط إلى أدنى ما يمكن، وكان بيننا وبين الثلج حوالي عشرة أمتار، فبدأ بعض الجنود في الطائرة بإنزال المؤنة المعبئة في شبكة.

في ذلك المكان رأيت وجوه الجنود الزرقاء وكأنهم موتى خرجوا من الثلج الآن، ورأيت وجه آمر الربية الأزرق المكفهر وهو يصرخ بجنوده لتلقي المؤونة، وعلى مقربة منه بغل كبير كأنه قطعة من الجليد، ونزلت من بطنه قطعة من الثلج كانت على هيئة مرآة تقسم البغل نصفين، وهو يرتعد وقطعة الثلج صامدة، فهي من السمك بحيث لم تتمكن ارتعادة البغل من تحطيمها.

كانت هذه المجموعة من الجنود معاقبة لخطأ ارتكبوه في إحدى المعارك، حتى أن الجنود في ديريلوك يسمونهم جنود الربية المعاقبة، ومنذ ذلك الحين حفظ دانيال المثل العربي: (فاز باللذات من كان جسور) على الرغم من أني أوضحت له لاحقاً أني لم أشعر بلذة في تلك الرحلة.

اقترح علي دانيال أن نتعشى في سولاف، وعلى الرغم من أنها تعد بعيدة بالنسبة لي، إلا أني وافقت، فاليوم هو يوم احتفال، ويمكن أن أسهر، فغداً هو اليوم قبل الأخير وسيجيء الأصدقاء للتهيؤ للامتحان بعد غد الإثنين ١ حزيران.

عندما وصلنا سولاف، ركن دانيال سيارته على حافة الطريق، ونزلنا لنلتقط صوراً ليلية، كانت حافة الشارع مسورة بسياج حديدي لتحمي المارة من السقوط في قلب الوادي، وكنت أخشى الإقتراب من السياج، وكان دانيال يعرف

أن لدي رهاب المرتفعات، فقلت له: (هل تعرف ما يعني هذا في الثقافة العربية)؟ فأجاب بالنفي. جاء سؤالي هذا ليوضح موقفاً بيني وبين دانيال، ففي يوم من أيامنا، سمع دانيال جندياً يردد (أبت الخباثة أن تفارق أهلها)، فسألني عن معنى كلمة (خبيث)، فشرحته له، ولأننا كنا نتبادل معاني المفردات العربية والسريانية سألته عن لفظ هذا المعنى في اللغة السريانية، فقال لي ضاحكاً: (بصراحة بصراحة، ما عدنه هيج واحد)، فضحكنا معاً، وعندما ألح علي دعوتي للإقتراب من السور وهو يعرف أني أخاف قلت له: (دانيال، هي هاي الخباثة)، فضحك من كل قلبه وقال: (هاي دائماً أسويها ويه أصدقائي).

كان المكان جميلاً، وكنا نقف فيه ونتلقى التفاح الذي تقذفه لنا الفتيات المسيحيات والكرديات من المنخفض ونحن في غاية السرور.

قبل أن نتعشى أخرج دانيال من حقيبة السيارة قلينة فيها علب بيرة كثيرة وأكياس من الشبس، واتخذنا مكاناً في جانب الجبل في قلب الاستدارة، وبدأنا نتناول البيرة ونحن في السيارة، وكنا نتنقل من موضوع إلى آخر ما بين ذكرى وذكرى إلى أن فاجأني بسؤال عن فائدة الخمر، فأخبرته بأن فيها فوائد كثيرة أهمها الشعور بالتحرر، فأجابني أن أهم فائدة هي أنها تمنحنا قابلية الحركة، لأن الإنسان بطبيعته يحب الحركة في مختلف الاتجاهات، فعندما يكون في القماط يضعونه في المهد ليتحرك يميناً وشمالاً، وعندما يكبر قليلاً يشترون له دراجة هوائية لتتحرك أقدامه بشكل دائري وهو يتحرك إلى الأمام ويستدير يميناً وشمالاً، ثم يحب الأرجوحة لأنها تحركه إلى الأمام والخلف، ثم دولاب الهواء الذي يحركه بشكل

دوراني عمودي، وبعد أن يكبر ولا يتمكن من ممارسة هذه الألعاب يشتري سيارة ليتحرك بها إلى ما يشاء، وإذا لم يتمكن من السيارة فأنه يتعاطى الخمرة ليقف هو، وتدور الأشياء من حوله.

عندما أكمل دانيال نظريته حول الحركة، نظرت إليه مدعياً أني لم استمتع بالمسألة لكني فجأة انفجرت ضاحكاً وكدت أموت من الضحك في الوقت الذي كان فيه دانيال صامتاً يتناول رشفة من كأسه ويردد: (شلونها هاي النظرية)؟

كان يوم الأحد الموافق ٣١ ـ مايس يوم تجمع الأصدقاء في غرفتي الصغيرة في فندق شيروان بعد الساعة العاشرة، فخرجت من ـ فندق شيروان ومشيت من تحت المجسر الشمالي الشرقي القريب، ثم توجهت يساراً نحو مدرسة (ده ره كي) التي سأمتحن فيها لكي أتعرف على الطريق المؤدي إليها وأنا أمشي، ثم مشيت قليلاً باتجاه الشمال الشرقي ثم تسلقت طريقاً الى المدرسة يبلغ طوله حوالي ثلاثمئة متر لأصل إلى الساحة الإمامية للمدرسة، شعرت بالتعب وأنا أتسلق هذا الطريق، لكن عودتي كانت سهلة؛ إذ تمنيت أن أعود دحرجة إلى الطريق العام الذي يربط مركز دهوك بمصيف زاويته.

عندما أبلغت لاسو بأن أصدقائي سيجتمعون عندي اليوم ساعدني بإبدال غرفتي بغرفة أكبر أشبه ما تكون بسويت، وأبلغ العمال بأن يهتموا بي اليوم أكثر من حيث التنظيف والخدمات الأخرى، وما إن حلت الساعة العاشرة حتى بدأ أصدقائي بالتوافد، فحضر مغديد في البداية ومعه رجل في الخمسين من عمره قدّمه لي مغديد على أنه (أبو فاضل) فرحبتُ به فعانقني الرجل وكأنه يعرفني

ومشتاق إليّ؛ إذ استمر عناقه طويلاً وهو يكاد يبكي، فقاطع مغديد عناقنا بأن سألني إذاما كنت أعرفه أم لا، فاعتذرت من عدم معرفتي به، وهنا قال مغديد: (هذا عباس شبكي)، فأصابني ذكر اسمه بالصدمة، وهو الأمر الذي جعلني أعود لمعانقته والعبرة تخنقني، وأنا أردد: (عباس، عباس، معقولة تصورتك متت).

في عام ١٩٨١، كنا نجلس في حانوت كتيبة استطلاع حطين في زاخو أنا ومغديد وعباس شبكي وآزاد ومعنا ستة أو سبعة من الجنود، وقد سهرنا ذلك اليوم لمشاهدة مهرجان الشعر الشعبي التعبوي الذي أقيم لدعم الحرب ضد إيران.

قدم أحد الشعراء قصيدة له بكلمات عامية، قال فيها مخاطباً الرئيس صدام حسين: (جِبتْ شَ اهدي لك بَهَ اليوم: فلاح، أهدي لك المنجل، عامل، أهدي لك الچاكوچ)، وهنا قال عباس شبكي من دون وعي: (جندي، أهدي لك البسطال)، فضحكنا بهمس لكننا خفنا، وانتابت قاعة الحانوت ملة من الصمت، وبدأ الجنود يخرجون من الحانوت وبقينا نحن الأربعة، وما هي إلا دقائق حتى اتفقنا على الخروج وعباس مرتبك وهو يردد: (آني شْ گلت)؟

في اليوم التالي استدعاني ضابط التوجيه السياسي وسألني عما حدث يوم أمس، فادعيت أني لا أعرف ماذا يريد، فأراني تقريراً كتبه جندي كان معنا في الحانوت ليلة أمس، يدّعي فيه أن عباس شبكي شتم رئيس الجمهورية، فأخبرت

الضابط أن هذا الإدعاء ليس صحيحاً، وكذلك فعل مغديد بعدي، أما آزاد فلم يُذكر اسمه في التقرير؛ لذلك نصحتهُ أن يلتزم الصمت.

وبناء على التقرير، شكل ضابط التوجيه السياسي مجلساً تحقيقياً أحال فيه عباس إلى المحكمة العسكرية في الموصل، فطلب عباس شهادتنا أنا ومغديد.

كان جو المحكمة مخيفاً عند شهادتي، إذ كان هناك سبعة قضاة من الألوية والعمداء يرتدون الزي العسكري، وما إن أديتُ القسم حتى سألني أحدهم: (ما قولك في تهجم الجندي المكلف عباس فاضل على السيد رئيس الجمهورية العراقية المهيب الركن صدام حسين المجيد)؟ عندها ارتبكتُ ولم أرد، فكرر عليّ السؤال فقلت له: (ما تهجم)، فرد علي بأن التقرير الذي بين يديه يقول إنه تهجم، وهنا شعرت بنوع من الشجاعة لأرد عليه، فقلت له (منو كتب التقرير)؟ فأجابني بأنه أمرٌ سرّي.

صمتُ قليلاً، ثم تذكرت نصيحة ابن خالي وهو شيوعي قديم، حين نصحني أن أنكر إذا تعرضت لاتهام من قبل الحكومة، وقال لي: (إذا لزموك بيدك منشورات ضد الحزب، وكمشوك كمش يد، وسألوك عليها كَول مو آني)، فتشجعت وقلت للقاضي: (آني شاهد علني، وما سمعته تهجم)، فطلب مني أن أخرج من القاعة ليدخل مغديد.

كنا اتفقنا أنا ومغديد على هذه الإجابة، وهي أن ننكر ولا نتحدث عن أي شيء.

بعد نصف ساعة تقريباً من التداول بين القضاة، أصدرت المحكمة حكما على عباس بالسجن لمدة سنتين ونصف السنة، فانهار عباس بباب المحكمة، ومنذ ذلك الحين، لم أره ولم أسمع أخباره إلى أن جاء به مغديد هذا اليوم.

يسكن عباس شبكي في تلعفر، وقد قدم للإمتحانات معنا ونجح في التمهيدي، فوجده مغديد بالصدفة في مطعم في الموصل.

بعد حضور عباس بقليل، حضر روهان ونارقين معاً، وفي النهاية همست لي ليليان وهي تحييني، أن دانيال أوصلها ولم يدخل، وأخبرها أني أعرف السبب.

قمت بتعريف روهان ونارقين على مغديد وعباس وليليان، فقال نارقين: (ليليان بنت ولايتي) بلغة مكسرة، فردتُ عليه: (بسيا رابا موخبي نارقين).

تبادلنا الحديث عن مكان المدرسة التي سنمتحن فيها، إذ كلنا في مدرسة واحدة وقاعة واحدة باستثناء روهان إذ كان في قاعة أخرى.

عندما عرف عباس أني قد انتقلت من الأنبار إلى بابل طلب مني أن أزور ضريح الإمام علي مكانه، وأدعو له بالخير هناك، وما إن قال ذلك حتى ارتسمت ابتسامات خفيه على وجوه أصدقائي الذين كانوا متيقنين من أني لا أزور الأضرحة، علماً أني لم أذكر لهم ذلك.

وفي أثناء تناول الشاي سألت عباس عن المدة التي قضاها في السجن وأشياء أخرى كثيرة، فجّرنا الحديث للسؤال عن الشبك وأصولهم، ولم أكن أدري أن هذا السؤال سيثير نقاشاً طويلاً حاولت مرات عدة أن أغير مجراه لكني

فشلت، فعباس يدّعي أن الشبك قومية مستقلة، في حين يرى روهان أن أصولهم كردية، لكن ليليان حسمت الموضوع حين قالت: (هسه هو من يعرف أصله بالضبط؟ يمعودين ترى الأنساب مثل الروايات التاريخية أغلبها مزيفة وهي مجرد سوالف أغلبها خيالية، وبعدين صارت عقائد وقوميات ونظريات وطلايب) فضحك الجميع واتفقوا على أن يهتموا بدروسهم.

استيقظت في يوم الإثنين ١ ـ حزيران مبكراً لأراجع على عجل مادة اللغة الكردية وكانت عيني على الهاتف، إذ كنت أنتظر اتصالاً من دانيال ليخبرني أنه بباب الفندق.

سألني دانيال ونحن في الطريق إلى المدرسة عن المادة التي أمتحنها فأخبرته أنها اللغة الكردية، فتبسم وقال: (والإسلامية شوكت)؟ فأخبرته أن تسلسلها هو الثالث هنا، وحين سألني عن تسلسل الإسلامية في بغداد أجبته أنه الأول في العراق باستثناء اقليم كردستان، عند ذلك تحدثنا عن أن الأنظمة القومية تهتم باللغة وتقدمها على الدين، فذكرني دانيال عندما كانت مادة الإسلامية تسمى (الدين) إذ كان دانيال يؤيد هذه التسمية لأنها عامة تشمل كل الأديان، شعرت أن توجه دانيال في هذا الإطار كان دينياً فقلت له: (يا دين) فأجابني: (شمدريني) وهو غارق في الضحك.

ما زالت الأسئلة مقلوبة، وأنا أراجع في ذهني التعبير والقواعد وجزءاً بسيطاً من تاريخ الأدب الكردي الحديث، وفقرة واحدة من البلاغة وهي الجناس التام والناقص، لأنه موضوع شكلي واضح، وقد حفظت المصطلحات وكتبتُ

تعبيراً يصلح لكل شيء ترجمه لي روهان تركت فيه فراغات أضع فيها الكلمة المركزية في التعبير.

عندما قلبت ورقة الأسئلة لم أفهم أياً من كلمات سؤال التعبير هي الكلمة المركزية، فسألت أحد المراقبين عمّا يريده هذا السؤال، فلم يجبني، واكتفى بالقول: (اقرا وافهم)، قلت له أنا عربي لا أعرف كثيراً في الكردية، فتفاجأ وقال لي (العرب معفيين من امتحان الكردي)، فشرحت له قصتي بهدوء، فأشار بإصبعه الى كلمة في التعبير هي (دستور) قلت بهمس: (الدستور العراقي)؟ فهزّ رأسه بالايجاب، فعرفت أن القصد من التعبير هو الفقرات التي تتعلق بالإقليم في الدستور العراقي واهمها المادة ١٤٠ التي تتحدث عن مصير محافظة كركوك والمناطق المتنازع عليها.

ولأني أعرف هذا الموضوع جيداً تمكنت من تجميع كل ما قرأته مع روهان من كلمات، واستعمال قواعد اللغة الكردية التي بدأت اضبطها منذ أيام، ثم كتبت تعبيراً كنت واثقاً من أني سأحصل منه على خمس عشرة درجة على الأقل، أي نصف الدرجة المقررة للتعبير، وبعد أن أنهيت التعبير، ارتقى طموحي في أن أحصل على ٣٥ من مئة في اللغة الكردية.

في هذا اليوم، لم أتعرض إلى طلب مساعدة من الزملاء، لأن أغلب من هم حولي يعرفون أنهم أفضل مني في هذه المادة، لكنهم في الوقت نفسه يروني أكتب، حتى إن نارقين التفت إلي وقال: (شتكتب)؟ فقلت له (شمدريني، المهم اكتب).

في يوم الخميس، كانت قاعة الإمتحان أشبه بالفوضى؛ فكثير من الممتحنين يتهامسون فيما بينهم، ومعظم من يحيطون بي عينهم علي، فاليوم هو يوم هيمنتي على المادة: إنه امتحان اللغة العربية، وعلى الرغم من أنهم لا يعرفون أني مهتم باللغة العربية، إلا أنهم يطمعون بمساعدتي لأني عربي فقط، إذ من المؤكد عندهم أني أفهم العربية أكثر منهم، وبصراحة أنا لم أقصّر بالمساعدة، لكني كنت أتمسك بورقة الإسئلة جيداً لأعطيها لنارڤين، فأنا أخشى من أن تُخطف مني مثلما خُطفت أسئلة الرياضيات في الإمتحان التمهيدي.

في ذلك اليوم، كتبت حلول أسئلة الرياضيات على ورقة الأسئلة لأساعد نارڤين، لكن الطالب الذي يجلس خلفي فاجأني، وخطف ورقة الأسئلة مني.

طلبت منه بهمس أن يعطيني ورقته لكي أكتب عليها لنارڤين، لكنه لم يستمع إلي، كان نارڤين يستمع إلينا فالتفت الى ذلك الطالب وتحدث معه باللغة الكردية بصوت مرتفع قليلاً وعصبية، فأعطاني ذلك الطالب ورقة أسئلته هو، وبدأت أضع عليها الحلول من جديد.

كنت أشك أن أحد الأساتذة المراقبين يرى أني أساعد من حولي في امتحان اللغة العربية، لكنه يتغاضى عن ذلك، فلما أنظر إليه وهو يدّعي أنه لا يرانا، لكني تأكدت من أنه يعرف ما يجري حين وقف على رأسي وأنا أجيب سؤالاً حول موضوع الإستثناء، كان صيغته: (ماحكم المستثنى في الجملة التالية)، فقد كان المراقب يتابعني بنظره عن قرب وأنا أعرب المستثنى، وهنا تدخل وقال: (الحكم

ليس إعراباً)، فانتبهت لخطئي وصححتُ إجابتي، ثم شكرته بهمس، فابتسم وهمس لي: (ساعدتك لأنك ساعدت غيرك).

(المسيح ماله كتلوه، تريدهم مَ يكتلونا)؟ قال دانيال ذلك قبل ٣٠ سنة عندما كنا نشاهد لقطات من قصف المفاعل النووي العراقي. كنت أظن في وقتها أن إيران هي من قصفت المفاعل، لكن دانيال كان مصراً على أنها إسرائيل.

وبمرور الوقت تبنت إسرائيل العملية، فتوقعت أن العراق سيرد مباشرة على إسرائيل لكن دانيال كان مصراً على أن العراق لا يرد. (مَ يرد هاي شبيك).

كان دانيال يردد هذه العبارة في كل مناسبة نتحدث فيها عن الرد العراقي. وحين نؤكد له أن العراق ينتظر نهاية الحرب مع إيران ليتسنى له الرد، كان دانيال يرى أن قصف المفاعل أحد بنود الإتفاق لمساعدة العراق ضد إيران، لذلك لا يرد.

في طريقنا إلى الجبل الذي يعدّ أعلى جبل في سلسلة جبال زاوه التي تحد دهوك من الجنوب، أعاد دانيال تلك الأحداث، فحاولت تغيير الموضوع ووفقت في ذلك؛ لأتجنب الأحاديث السياسية التي تشوش عليّ متعة النظر إلى دهوك من على قمة الجبل وكأن الجبل الأبيض المقابل يدعونا لنحتضن المدينة.

خلال أيام الاستراحة بين امتحان وآخر كنا نقرأ أنا وروهان ونارفين يومياً، نقرأ الرياضيات والاقتصاد والمواد الدراسية الأخرى، وفي الليل نخرج أنا ودانيال إلى مكان ما من أماكن ذكرياتنا، وخلال هذه المدة التقيت بليليان مرتين

خارج المدرسة، مرة ذهبنا فيها إلى زاويته وقضينا نهاراً ممتعاً ومرة ذهبنا فيها إلى الجبل الذي يشرف على مركز دهوك.

كان منظرنا رائعاً ونحن نجلس على مصطبة في قمة أحد الجبلين اللذين كانا سبباً في تسمية المدينة التي تقع تحت مستوى نظرنا الآن، (دهوك يعني جبلين) قالت ليليان ذلك وهي تشد على الواو الأولى لتعلمني بأن (دو) تعني اثنين و(هوك) تعني بيضة، وهي وصف لشكل الجبل.

كان ذلك المنظر يشعرنا بأننا آلهة بحسب قول ليليان، وكانت مادة الامتحان تتخلل حديثنا عن الذكريات، فمن حين لآخر تقتحم الدروس ذكرياتنا وتقتحم ذكرياتنا الدروس، تذكرت أول حديث لي معها عندما أرتني ورقتها الامتحانية وقد رسمت عليها الكلاميدومونوس في امتحان الأحياء مثل لوحة فنية، حينها شعرت أنها أرادت أن تساعدني؛ لذلك شكرتها بعد الإمتحان وتمشينا قليلاً في باحة المدرسة ثم بدأت علاقتنا تنمو بسرعة.

في يوم امتحان التاريخ، كنت أعاني قليلاً، لأن الكتاب يروي تاريخ القومية الكردية في حقبة هيمنة الصفويين والعثمانيين على المنطقة، وكانت معظم الاسماء الكردية غريبة عليّ، ولم أكن الوحيد الذي عانى من كتاب التاريخ، فعلى الرغم من أنه يؤرخ لجزء من الشعب العراقي إلا أنه يميل إلى القومية الكردية، فهو يتحدث عن تاريخ الكرد وليس تاريخ كردستان العراق، تاريخ الكرد في العراق وتركيا وإيران وسوريا والشتات.

يرى مغديد ترزي أن منهج الكتاب ليس تاريخياً، إنما هو منهج نقدي؛ فهو يحاول إظهار مظلومية الكرد على حساب القوميات الأخرى. كان مغديد يقول ذلك ويعتذر لي لئلا أصفه بالعداء للكردية. كان يوضح لي أنه ينتقد من وضع المنهج. وكنت أخبره بأني أعرف موقفه الإنساني، وليس هناك من داع ليكرر ذلك الإعتذار دائماً، فأنا أعرف أن القضية قضية أحزاب مختلفة لأسباب ليست إنسانية.

كانت الاتفاقيات بين العثمانيين والصفويين على حساب الكرد، وهو الأمر الذي يجعل القارئ المتعاطف يعادي القوميات الثلاث المحيطة بالكرد، فهو يعادي الترك والفرس والعرب، فالكتاب لم يكن تاريخ وطن، بل تاريخ جزء من وطن، ولعل ذلك قد جاء ردة فعل لكتب التاريخ عند الأقوام المحيطة بالكرد، فمنهج التاريخ في تربية المركز على سبيل المثال تاريخ أمة وليس تاريخ العراق فهو يبدأ من الهجوم البرتغالي والاسباني على المغرب والجزائر وصولا إلى عمان، وعلى الرغم من أن هذا الهجوم لم يشمل العراق إلا أنه تصدر كتاب التاريخ في الفصل الأول.

أظهرت حواراتنا الكثيرة في أثناء مدة الامتحانات أن مناهج كتب التاريخ مناهج تحثّ على العنف ضد الآخر، سواء أكان مؤتلفاً أم مختلفاً، وهذه المناهج، في مواضع كثيرة، تكون أقبح من مناهج التربية الإسلامية التي تجعل من العرب أفضل أمة، إلا أن منهج كتاب الإسلامية في الإقليم قد خفف من هذه النزعة، وحاول مؤلفو الكتاب تحييد الدين، فاكتفوا بكراس صغير جداً بصفحات قليلة، وكأنَّ القائمين على التربية في الإقليم يحاولون تقليل الإهتمام بهذا الموضوع وإبعاد

الأجيال عما يربطها بالعرب، وهذا واضح على تسمية المواليد الجديدة التي ابتعدت عن الاسماء العربية حتى إذا كانت مطبوعة بالدين.

كان نارقين يلازمني، ويرغب في أن نقضي مدة الإمتحانات معاً، وكنا نتدرب كثيراً على الكتابة على الظهر، وقد كان مصراً على أن أكتب له على الممحاة الكبيرة المفضوحة.

في امتحان الجغرافية، كان يكتب لي فرع السؤال فقط مثل (س٢ ف ١) وكان علي أن أكتب الإجابة على الممحاة الكبيرة، وحين أجبته على أول سؤال، أعاد لي الممحاة وإجابتي السابقة مازالت عليها، فقد كتب سؤاله على الجهة الثانية من الممحاة، وهنا انتابني غضب شديد، فأعدت له الممحاة وقد كتبتُ عليها: (نظف الممحاة قبل أن تعيدها لي). فضحك بصوت عالٍ وأعادها لي نظيفة وعليها رموز السؤال فقط.

ومرة، كتبت له الإجابة على الممحاة، فأعدها لي وعليها كلمة (متأكد). فكتبت له: (ههههههههه). وأعادها لي وعليها (ههههههههههاي).

كنت أروي لليليان ما يجري بيني وبين نارقين في قاعة الإمتحان وهي تكاد تقع من الضحك وتردد عبارة بالعامية المصرية: (هو الخراب جيه من شويه).

عندما نلتقي جميعاً في غرفتي في الفندق باستثناء دانيال، نعقد فصلاً لاستعادة ما حدث من غش بيني وبين نارقين لساعة قبل أن نبدأ الدرس، وكان نارقين يردد في كل مرة نذكر فيها حدثاً: (شنو آني نازنيم عربي).

في اليوم الأخير من الإمتحانات شعر جميع أصدقائي أنهم يشعرون بفراغ كفراغ أيام الجنود العائدين من القتال، وقد خاضوا حرباً لا يعلمون هل انتصروا فيها أم لا، فقررنا أن نؤجل سفرتنا التي اتفقنا عليها إلى يوم استلام النتائج في شهر تموز، واتفقنا على السفر يوم غد كل إلى أهله: أنا إلى بابل ومغديد إلى كركوك، وعباس شبكي إلى تلعفر، وكروان وليليان إلى زاخو، وكان في توديعي روهان ودانيال، يقفان على مبعدة من بعضهما دون أن يعرف أحدهما الآخر.

وما إن سارت السيارة التي تقلني إلى بغداد حتى رأيت روهان يتجه إلى دانيال ويصافحه وكلاهما مبتسم.

{٤}

قضيت مدة العطلة الصيفية من أوائل تموز إلى نهايته وأنا أقرأ كتاب مادة اللغة الكردية استعداداً لأداء امتحان الدور الثاني.

كنت قد جلبت معي محاضرات روهان كلها وملازم اشتريتها من مكتبة جيهان، وبعض محاضرات اللغة الكردية التي حصلت عليها من أحد طلبة مدرسة نوروز الذي التقيت به بالصدفة في مطعم المنقل، وأضفت إليها مقالات ودروساً بسيطة من الأنترنيت وبدأت أدرس، ويوماً بعد يوم، أشعر بتحسن وسيطرة على المادة، إلى أن خمنت أني سأحصل على ٥٠ بالمئة في اللغة الكردية في الدور الثاني.

في الثاني من آب، حينما أنا أقلب قاموس اللغة الكردية لأبحث عن معاني بعض الكلمات اتصل بي نارقين:

ـ ألو صديكي شلونك.

= بخير إنت شلونك.

ـ آني؟ زور باشا. آني خوش. خابر روهان، روهان عنده فكرة.

شكرته على الإتصال وخمنت أن النتائج ظهرت، لكن نارقين لم يشاهدها بنفسه، لذلك كان حذراً من أن يخبرني بنتيجتي، كنت واثقاً من رسوبي في مادة

اللغة الكردية، وكنت شاكاً في درجة مادة التاريخ، وكنت واثقاً من نجاحي في الدروس الأخرى بتفوق. فإذا كان الأمر كذلك، فلا وجود للمفاجآت.

عندما اتصلت بروهان أخبرني بأن النتائج ستظهر في الثامن من آب، وأنه يدعونا إلى دهوك لنلتقي قبل إعلان النتائج. أحببت الفكرة وشعرت أني بحاجة إلى السفر، وإلى لقاء روهان لوجود أسئلة كثيرة برزت لي وأنا أعيد قراءة محاضراته.

في مساء الخميس ٦ آب ٢٠٠٩ وصلت إلى فندق شيروان، وطلبت من لاسو غرفة لمدة ثلاثة أيام، فرحب بي كثيراً وسألني عن نتيجة الامتحان فأخبرته أنها ستظهر قريباً فوجدته مصراً على أن تكون هذه الأيام الثلاثة على حساب الفندق، فاعتذرت له عن ذلك وأخبرته أن رؤيته وفرحته بي هي هدية قيمة جداً، فاكتفى بأن يكون العشاء على حساب الفندق فشكرته على ذلك.

زارني دانيال بعد العشاء، وخرجنا للنزهة في گلي دهوك، وهناك أخبرته أني رأيت روهان يتوجه إليه عندما ودعاني بعد الامتحانات، فتبسم دانيال وقال:

(هذا روهان وردة، بس آني ما گتله إحنا كنا في الجيش والأسر، بعده يظن آني قريب ليليان وهي كلفتني أن اودعك)، فعرفت أنهما أصبحا صديقين، وما هي إلا لحظات حتى وصل روهان إلى الگلي، وهناك أخبراني أنهما التقيا مرات خلال الشهر الماضي.

شعرت بمتعة كبيرة وأنا أشاهد صديقيّ دانيال وروهان يلتقيان، وشعرت أنّ روهان قرأ الفرحة في عيني وقال: (لو ما انت چان ما عرفنا بعضنا وإحنا من نفس المحافظة).

اقترح دانيال أن نحتفل بهذا اللقاء بتناول زجاجتين من البيرة المثلجة في الجهة الثانية من بحيرة سد دهوك، فصعدنا سيارة دانيال وعبرنا جسر السد فتوقفنا على جانب الطريق قرب الرجل الذي يبيع الباقلاء والحمص، وبدأنا نتناول شرابنا في خضم حديث عن كثير مما يتعرض له العراق من مواقف آخرها قيام أحد الصحفيين العراقيين بضرب الرئيس بوش بحذائه قبل شهر من الآن في مؤتمر صحفي عن الاتفاقية الأمنية بين العراق وأمريكا، وإمكانية ما سوف يتعرض له البلد لاحقاً.

كان دانيال يظن أن الموقف سيمر مثل غيره في حين يرى روهان أن الحادثة لن تمر بسلام، لكن دانيال لم يفوّت الفرصة، فقد روى لنا وجهة نظره عن تمكن المالكي من إبعاد العراق عن الأزمات مثلما أبعد الحذاء الطائر عن وجه الرئيس بوش.

شعرت يوم الجمعة بوعكة صحية، فأبلغت أصدقائي أني سأبقى نائماً لغاية منتصف النهار، لكني لم أتمكن من ذلك، فقد صحوت في السابعة صباحاً وخرجت لأتناول الفطور الصباحي في المطعم الذي يقع في الشارع الموازي لسوق جگاير من جهة الجنوب. تناولت فطوري المعتاد لكني هذه المرة لا أعرف لماذا لم أشعر بمتعة.

اتصلت بدانيال فوجدته قد نهض مبكراً أيضاً، فجاءني إلى المطعم وخرجنا بسيارته على غير تخطيط، عندها اقترح علي أن نسافر إلى زاخو، فقد وجد أنه مشتاق لطريق زاخو.

عندما وصلنا مدينة سميل، بدأنا نتذكر زياراتنا لأصدقائنا في سميل وفايدة، وواجباتنا على هذا الطريق الذي يربط زاخو بالموصل، وما إن وصلنا زاخو حتى توجهنا إلى إبراهيم الخليل، لنقف على الجسر الرابط بين العراق وتركيا، توقفنا هناك كثيراً ونحن نشاهد الشاحنات التي تجتاز الجسر محملة وتعود لتركيا خالية.

بدا لي الأمر متشابهاً بين الآن وقبل ثلاثين عاماً، فقد كان من ضمن واجبتنا ونحن في زاخو حماية الشاحنات التركية التي تعبر الجسر وتأمينها لغاية ما تصل حدود الموصل، كنا نجمع أكثر من عشرين شاحنة ثم نعطيهم إذناً بالحركة، إذ تتقدم الرتل مدرعتان وتسير خلفه مدرعتان.

ذكرني دانيال بزيت الگاز الذي كانت سيطرة الجسر تسكبه من الشاحنات التركية في بركة كبيرة لأنهم لايسمحون للسائق التركي أن يأخذ معه من الوقود إلا ما يكفيه للوصول لأقرب محطة وقود في تركيا، لأن أسعار الوقود في العراق مدعومة.

في اليوم التالي كنت أتهيأ لاستقبال اصدقائي في غرفتي، وما إن حلت الساعة الحادية عشرة حتى بدؤوا يتقاطرون شيئاً فشيئا، وما إن حلت الثانية عشرة

حتى حضروا كلهم في غرفتي بما فيهم دانيال. كنت قد اتفقت مع لاسو أن يهيئ لنا غداء في الفندق، وقد فعل لاسو ذلك عن طيب نية، فقدم لنا تشكيلة من الأطعمة تنتمي إلى كل العراق، وما أعجبني أنه وضع مع التشكيلة (سيّاح وبيض)، وهو الأمر الذي جعل الحديث ينتقل من دهوك إلى ميسان، ومن سد دهوك إلى أهوار الجنوب وطبيعتها الخلابة.

استيقظت مبكراً، وكنت قلقاً وأنا أستعد للذهاب إلى تربية دهوك لمعرفة النتائج، فقد اتفقنا أن نلتقي هناك في العاشرة صباحاً، فلم يبق لي إلا ساعات من الآن لأعرف النتيجة، وفي الساعة التاسعة بالضبط اتصل بي روهان وأخبرني أنه في التربية فسألته عما إذا ظهرت النتائج أم لا فقال: (فضيحة، خليها سكته)، تعال وانت تعرف، فخرجت من الفندق وأنا مازلت أتحدث إليه وهو يردد: (تعال هسه، أوكي، تعال). اغلقت هاتفي واستأجرت تاكسياً.

(ماذا يمكن أن تكون الفضيحة، شنو راسب بكل الدروس)، كنت قلقاً وأنا أحدث نفسي، إذ لا يمكن رسوبي في اللغة الكردية فضيحة، لأن كل أصدقائي متأكدون أني سوف أرسب في هذه المادة، وكذلك مادة التاريخ.

وصلت بناية مديرية التربية، فوجدت كل أصدقائي يقفون بباب البناية ويبدو عليهم أنهم قد عرفوا نتائجهم وعرفوا نتيجتي أيضاً، فتوجهت إلى روهان:

ـ ها، بشّر.

= روح شوف بنفسك. (مشيراً إلى جدار ألصقت عليه عشرات الأوراق).

تمشيت نحو الجدار بهدوء، وبدأت أبحث عن اسمي، وبعد مدة ليس بالطويلة وجدت اسمي وقد كتب بجانبه (ناجح)، عدت بنظري إلى الإسم جيدا وتتبعت الفراغ الفاصل بين اسمي وبين كلمة ناجح، فوجدت أني ناجح، (ناجح، معقولة، والكردي؟) حينما كنت أردد هذه العبارة مع نفسي، انتبهت أن أصدقائي يقفون خلفي، فقالت ليليان (إي ناجح، شنو مستغرب)؟ فأخبرتهم بمكالمة روهان لي وقوله (فضيحة) فوجدت روهان مصراً على وجود الفضيحة.

كانت الفضيحة الكبيرة تتلخص في أن كل أصدقائي قد رسبوا في مادة اللغة الكردية، بما فيهم روهان.

أنا الوحيد الذي نجح من أصدقائي في مادة اللغة الكردية، وقد سخرتُ منهم كثيراً، الأمر الذي جعل روهان يعتذر؛ لأن الكتاب ليس مكتوباً بلغته السورانية، في حين لم يعتذر نارقين على الرغم من أن الكتاب بلغته البادينانية، بل كان في غاية الفرح لأنه سيمتحن في السنة القادمة بمادة واحدة فقط، وطلب مني أن أدرّسه اللغة الكردية وهو ينظر إلى روهان ويضحك من كل قلبه.

في أوج هذا الصخب، كان مغديد هادئاً وكأن شيئاً لم يكن، فهو يراقب ضحكاتنا ويبتسم بهدوء لكنه في النهاية قال لروهان: (تعيش وتاكل غيرها)، فضحك الجميع، لا لأن قوله يُضحك، بل لأنه نطق.

في هذه الأثناء، وصل دانيال، فأطلعوه على النتائج، فدعانا للغداء إحتفالاً بي، وما إن وصلنا إلى كهف جوارسين في الجبل الأبيض، بدأت ليليان بتحضير

الطعام على الأرض جنب أحد الأعمدة الأربعة وهي تغني بهمس أغنية عراقية تجمع بين الروح السريانية والكردية والتركية والعربية:

همسو ريشو دولا تيوا بشتايـــه

ما بشتيتو منيله كاشقياتو آخاوه.

شيئاً فشيئاً بدأنا نردد الأغنية من بعدها، ثم علت أصواتنا بالأغنية ونحن ننظر إلى وادي دهوك من أقدم الكهوف التي سكنها الإنسان، فنكاد نرى الناس متشابهين، وبينما نحن كذلك، توقفت قربنا مدرعة، نزل منها أربعة جنود شباب، وبدأوا يلتقطون صوراً على مدرعتهم يظهر في خلفياتها كهف أثري يقف ببابه مجموعة من الكهول بينهم امرأة جميلة مبتسمة.

كريم محسن الخياط نوهدرا رواية

نوهدرا

دار كلمات الالكترونية
Sal_am_76@yahoo.com
Kalemat00000002